

وزارة المعارف العمومية

كتاب نفس النثر

لأبي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادى

حقيقه وعلاق حواشيه

الدكتور طه حسين بك و عبد الحميد العبادى

الأستاذان بكلية الآداب بجامعة نواذ الأول

حقوق هذه الطبعة محفوظة للوزارة

القائمة

طبع بالطبعة الأميرية بهولاق

١٩٤١

كتاب نقد النثر

لأبي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي

حققه وعلق حواشيه

الدكتور طه حسين بك و عبد الحميد العبادي

الأستاذان بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول



حقوق هذه الطبعة محفوظة للوزارة

القاهرة

طبع بالطبعة الأميرية بمولاي

١٩٤١

نقد النثر

أو

كتاب البيان

بسم الله الرحمن الرحيم

[٢٨]

صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم . إن أولى ما افتتح به (١)
اللييب كتابه ، وأبدأ به الأديب خطابه ، ما افتتح الله به القرآن ، وجعله
آخر دعوى أهل الإيمان . فالحمد لله شكراً لنعمته ، واعترافاً بمتته . وصلى
الله على محمد وعترته (٢) ، والأخيار من ذريته .

وأما بعد ، فإنك ذكرت لى وقوفك على كتاب عمرو بن بحر الجاحظ (٣)
الذى سماه "كتاب البيان والتبيين" ، وأنتك وجدته إنما ذكر فيه
أخباراً متخلة (٤) وخطباً متخبة ، ولم يأت فيه بوصف البيان ، ولا أتى
على أقسامه فى هذا اللسان ؛ وكان عندما وقفت عليه ، غير مستحق
لهذا الاسم الذى نسب إليه . وسألتنى أن أذكر لك جملاً من أقسام
البيان ، آتية على أكثر أصوله ، محيطاً بمجاهير فصوله ، يعرف بها المبتدى
معانيه ، ويستغنى بها الناظر فيه ؛ وأن أختصر لك ذلك لئلا يطول له
الكتاب ؛ فقد قيل "إن الإطالة أكثر أسباب الملالة" ؛ فتناقلت عن
إجابتك إلى ما سألت ، لما قد حذرت منه وجهت عنه العلماء من
التعرض لوضع الكتب ، إذ كانت نتائج اللب ، وكان المتجاسر على تأليفها
إنما يبدى صفحة عقله ، ويبين عن مقدار علمه وجهله . ثم رأيت حق

(١) فى الأصل : "له" .

(٢) حرة الرجل نفسه ورحله وعشيرته الأذنون من ماضى وغير .

(٣) هو الأديب البصرى الكبير والمتكلم المعزى الشهير وله من التصانيف الحسان كتاب

"الحيوان" وكتاب "البيان والتبيين" توفى عام ٢٥٥ هـ وقد نيف على التسعين .

(٤) مختارة .

الصديق عند العلماء فوق حق الشقيق ؛ ووجدتهم يجعلون الإخوان من
عُدَد الزمان ، يقال على عليه السلام : "المرء كثير بإخوانه" وسئل بعضهم
فَقِيلَ له : أيما أحب إليك أخوك أم صديقك ؟ فقال : "إيما أحب أني
إذا كان صديق". وقال قائلهم : "الإخاء الصادق أقرب من النسب
الشابك^(١)". وقال بعض الفلاسفة : "الأصدقاء نفس واحدة في أجساد
منفردة". وقال علي-رضوان الله عليه : "ثلاثة لا يعرفون إلا في ثلاثة
مواطن : لا يعرف الشجاع إلا عند الحرب ، ولا يعرف الحليم إلا عند
الغضب ، ولا يعرف الصديق إلا عند الحاجة". فلما تذكرت ذلك وتدبرته
تحمّلت لك تأليف ما أحبيته ورسمته ، على علم مني بأن^(٢) كتابي لا بد أن
يقع في يد أحد رجلين : إما عاقل يعلم أن الصواب قصدي والحق إرادتي ،
وأن نية الرجل أولى به من عمله ، فيتعمد سهواً أن وقع مني ، ويغفر زللاً إن
صدر عني ؛ ويعود بفضل حمله على زلي ، ويصلح بعمله خطئي ، فقد وجب
ذلك عليه لي ، لاعترافي قبل اقترافي ، وإقرارى بالتقصير الذي رُكِبَ في
جبلته^(٣) مثلي . وإيما جاهل أحب الأشياء إليه عيب ذوى الأدب والتسرع
إلى تهجينهم وذكر مساوئهم ، وذلك لمنافرتهم إياهم وبعد شكله من أشكالهم ؛
ومن أراد عيباً وجده ، ومن فخص عن عثرة لم يعدّ لها . وكان يقال :
"من حسد إنساناً اغتابه ، ومن قصر عن شيء عابه" . ولذلك قيل :
"من جهل شيئاً عاداه" . وقال علي-رضوان الله عليه : "عداوة الجاهل
للعلم على قدر قلة انتفاعه به" . وقال الشاعر :

(١) المتداخل ، ويقال بينهما شبكة بالضم أي قرابة .

(٢) في الأصل ، "فإن" .

(٣) الطبيعة والخلقية .

تاريخ ١٤/٥
٥٨/١٢

وأسرع ما علمت بظهور غيب على عيب الرجال ذوو العيوب
ويروى :

وأسرع ما علمت بظهور غيب إلى ذكر العيوب ذوو العيوب
فمن كانت هذه حاله ، كان اللبيب حقيقاً بترك الحفل به ، وقلة
الاكتراته له .

وقد ذكرت في كتابي هذا جملاً من أقسام البيان ، وفقرّاً من آداب
حكماء أهل هذا اللسان ، لم أسبق المتقدمين إليها ، ولكنني شرحت
في بعض قولي ما أجملوه ، واختصرت في بعض ذلك ما أطالوه ، وأوضحت
في كثير منه ما أوعروه ، وجمعت في مواضع منه ما فرقوه ، ليخفف
بالاختصار حفظه ، ويقرب بالجمع والإيضاح فهمه . وما توفيقي إلا بالله
عليه توكلت وإليه أنيب .

*
**

وأما بعد ، فإن الله خلق الإنسان وفضله على سائر الحيوان ، وأنطق
بذلك القرآن فقال عز وجل (١) : " وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ
فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا
تَفْضِيلًا " (٢) ، وإنما فضله على سائر أهل جنسه بالعقل الذي فرق به (٣) بين

(١) أورد المؤلف كثيراً من الآيات القرآنية في أثناء هذا الكتاب فوجدنا فيه بعض التحريف
فانتهاد كما هو وارد في المصحف الشريف من غير تنبيه على مواضع التحريف .

(٢) سورة الأسراء .

(٣) في الأصل : " الذي به فرق به " بـ " تكرار " به " .

الخير والشر ، والنفع والضر ، وأدرك به ما غاب عنه وبعد منه . والدليل على أن الله عز وجل إنما فضل الإنسان بالعقل دون غيره ، أنه لم يخاطب إلا من صح عقله ، واعتدل تميزه ، ولا جعل الثواب والعقاب إلا لهم ؛ [٢٠٢] ووضع التكليف عن غيرهم من الأطفال الذين لم يكمل تمييزهم ، والمجانين الذين فقدوا عقولهم . فالعقل حجة الله على خلقه ، والدليل لهم إلى معرفته ، والسبيل إلى نيل رحمته ، وقد أتت الرواية ” إن الله عز وجل لما خلق الخلق ثم العقل بعدهم ، استنطقه ثم قال : أقبل ! فاقبل ، ثم قال له : أدبر ! فادبر ، فقال : وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحب إلي منك ، ولا أكلتك إلا فيمن أحب ، أما إني إياك أمر وأنهاى ، وإياك أعاقب وأثيب ، وبك آخذ ، وبك أعطي “ . وروى عن أبي عبد الله (١) عليه السلام أنه قال لهشام : ” يا هشام ! إن لله ثنتين : حجة ظاهرة وحجة باطنة ، فأما الظاهرة فالرسل ، وأما الباطنة فالعقل “ . وعنه عليه السلام أنه قال : ” حجة الله على العباد النبي ، والحجة فيما بين العباد وبين الله العقل “ . ولولا العقل الذي بان به ذوو التمييز من ذوى الجهل ، لما كان بين الإنسان وبين سائر الحيوان فرق في تولد ولا نمو ، ولا حركة ولا هدو ، ولا أكل ولا شرب ، لأن سائر البهائم شركاؤه في ذلك ، فبالعقل إذاً تنال الفضيلة ، وهو عند الله أقرب وسيلة .

(١) هي هنا كنية جعفر الصادق ، وهو الإمام السادس من أئمة الشيعة الإمامية ، المتوفى عام ١٤٨ هـ . وحشام المذكور بعد في المتن هو حشام بن سالم ، وكان من وجوه أصحاب الإمام جعفر الصادق . (كتاب « فرق الشيعة » للنويعي ص ٦٦) .

باب قسمة العقل

والعقل ينقسم قسمين : موهوب ، ومكسوب فالموهوب : ما جعله الله في جبلة خلقه ، وهو الذي ذكره في كتابه حيث يقول : ” وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ^(١) ” وقد فضل الله في هذه الموهبة بعض خلقه على بعض على مقدار علمه فيهم كما فضل بعضهم على بعض في سائر أخلاقهم وأفعالهم ، فقال : ” وَنَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا تَخْزِيئًا وَرَحْمَةً رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ^(٢) ” . وإنما فعل الله ذلك لمصلحة لهم . ونحن نبين الصلاح في ذلك ووصفه فيما نستأنف من كتابنا هذا إذا صرنا إليه .

والمكسوب : ما أفاده الإنسان بالتجربة والعبث ، وبالأدب والنظر ؛ [٢] وهو الذي ندب الله عز وجل إليه فقال : ” أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ^(٣) ” وجعل من أعطاه العقل الغريزي ثم أهمله وترك شحذه بالأدب والتفكير والتمييز والتدبر كالأنعام ، وعرفنا أن مصيرهم إلى النار ، فقال : ” وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ

(١) سورة النحل .

(٢) سورة الزمر .

(٣) سورة الحج .

لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١) .
 إلا أن العقل الموهوب أصل — والموهوب القطب — والمكسوب فرع .
 والأشياء بأصولها ، فإذا صح الأصل صح الفرع ، وإذا فسد فسد . وقد شبه
 بعض القدماء العقل الغريزي بالبدن وشبه المكتسب بالغذاء ، فكما أن
 الغذاء لا يستحيل إلا بالأبدان المحملة له ، ولا ينفع إلا بحصوله فيها ، فكذلك
 العقل المستفاد بالأدب لا يتم إلا بالعقل الغريزي ؛ وكما أن البدن إذا عدم
 الغذاء لم يكن له بقاء ، فكذلك العقل الغريزي إذا عدم الأدب . وإذا صح
 العقل الموهوب كان بمنزلة الصحيح الذي يستمرئ الغذاء (٢) وينتفع به .
 وإذا فسد كان بمنزلة البدن المريض الذي لا يشتهي الغذاء ، وإن حمل منه
 عليه ما لا تدعوه طبيعته إليه كان زائدا في مرضه واستحال إلى الداء الذي
 هو الغالب عليه . ولذلك قيل : ” إن الأدب يذهب عن العاقل السكر
 ويزيد الأحمق سكرة “ . وقال الله عز وجل : ” قُلْ هُوَ الَّذِي آمَنُوا هُدًى
 وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ
 مَكَانٍ بَعِيدٍ “ (٣) . وأحمد الناس عند الحكماء أصحابهم عقلا وعلماء وأدبا .
 وقد قال الله عز وجل : ” إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ
 لَا يَعْقِلُونَ “ (٤) . وقال : ” قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ
 لَا يَعْلَمُونَ “ (٥) . وقال : ” يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ

(١) سورة الأعراف . رذرانا خلقنا

(٢) بحمد هيتا حميد المعية .

(٣) سورة فصلت .

(٤) سورة الأأنال .

(٥) سورة الزمر .

دَرَجَاتٍ“ (١) . وأخبر بعاقبة من أهمل نفسه وضيع عقله ، فقال عز وجل : [م ٣]
 ”وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ . فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ
 فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ“ (٢) . فمن لم يتفكر بقلبه وينظر بعقله ، لم ينتفع
 بهذا الجوهر الشريف الذي وهبه الله عز وجل له . وإلى التفكير ندب (٣)
 الله عباده . وبالأعتبار أمرهم فقال : ”أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ“ الآية (٤) . ”أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ“ (٥)
 وقال : ”فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ“ (٦) . وقال ”أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ“ (٧) ،
 وروى في الخبر : ”فكرة ساعة خير من عبادة سنة“ . وروى عن الصادق (٨)
 عليه السلام في كلام له : ”ولكل شيء دليل ، ودليل العقل الفكر ،
 ودليل الفكر الصمت“ . فبالفكر والاعتبار ، يتقَي الزلل والعمارة ، وبالتجارب
 تعرف العواقب وتدفع النوائب . فاذا تفكر الإنسان وتدبر ، ونظر واعتبر ، وقاس
 ما يذله عليه فكره بما جربه هو ومن قبله ، تبين له ما يريد أن يتبينه وظهر له
 معناه وحقيقته . وقد ذكر الله عز وجل البيان وامتدحه وامتدح بأنه علمه
 الإنسان ، فقال عز وجل : ”الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ

(١) سورة المجادلة .

(٢) سورة الملك .

(٣) نذبه إلى الأمر كتنصيره دعاء رخته .

(٤) سورة الروم .

(٥) سورة الأعراف . والجنة بكسر الجيم : الجنون .

(٦) سورة الحشر .

(٧) سورة النساء .

(٨) هو جعفر الصادق السادس الإمام من أئمة الشيعة الاثني عشرية .

الْبَيَانَ^(١) . وجعله (أَعْنَى كِتَابِهِ) ، تَبَيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَجَعَلَهُ قُرْآنًا ،
 وَجَعَلَ رِسَالَهُ مُبَيِّنِينَ لِحَلْفِهِ ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا
 بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ »^(٢) . وَقَالَ : « أَلَمْ تَرَ أَنَّكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ »^(٣) .
 وَقَالَ : « أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبَيِّنٌ »^(٤) .

باب فيه ذكر وجوه البيان

والبيان على أربعة أوجه : فمنه بيان الأشياء بذواتها وإن لم تُبَيَّنْ بلغاتها ،
 ومنه البيان الذي يحصل في القلب عند إعمال الفكرة واللب ، ومنه البيان
 الذي هو نطق باللسان ، ومنه البيان بالكتاب الذي يَبْلُغُ مَنْ بَعْدَ أَوْ غَاب .
 فالأشياء تَبَيَّنُ للناظر المتوسم والعاقل المتبين بذواتها وبمعجيب تركيب
 الله فيها وآثار صنعته في ظاهرها ، كما قال عَزَّ وَجَلَّ : « إِنِّ فِي ذَلِكَ
 لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ »^(٥) . وَقَالَ : « وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ »^(٦)
 ولذلك قال بعضهم : « قُلْ لِلْأَرْضِ : مَنْ شَقَّ أَنْهَارَكَ وَغَرَسَ أَشْجَارَكَ ،
 وَجَنَى ثَمَارَكَ ؟ فَإِنَّ هِيَ أَجَابَتْكَ حَوَارًا »^(٧) وَإِلَّا أَجَابَتْكَ اعْتِبَارًا ، فَهِيَ
 وَإِنْ كَانَتْ صَامِتَةً فِي نَفْسِهَا فَهِيَ نَاطِقَةٌ بِظَاهِرِ أَحْوَالِهَا . وَعَلَى هَذَا النَحْوِ

(١) سورة الرحمن .

(٢) سورة إبراهيم .

(٣) سورة يونس .

(٤) سورة الدخان .

(٥) سورة الحجر .

(٦) سورة النكث .

(٧) الحوار المخامرة . والمراد "فإن لم تحبك لسان المقال أجابتك لسان الحال" .

استنطقت العرب الريع وخاطبت الطلل ، ونطقت عنه بالجواب ، على
سبيل الاستعارات في الخطاب . وقد قال الله عز وجل في هذا المعنى :
”أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ“ (١)
وقال الشاعر :

ياربع بَشْرَة^(٢) بالجناب^(٣) تَكَلِّمْ وَأَيْنَ لَنَا خَبْرًا وَلَا تَسْتَعِجِم^(٤)
مالي رأيتك بعد أهلك موحشًا خَلَقًا^(٥) كحوض الباقر^(٦) المتهدم
فاستنطق مالا ينطق بلسانه ، لأن أحواله مظهرة لبيانه . وقال آخر ،
وأجاب عن صامت غير مجيب ، لما ظهر من حاله للقلوب :

فأجهشتُ للتَّوْبَاذِ^(٧) حين رأيتُه وكبر للرحمن حين رَأَيْتُ
فقلت له أين الذين عهدتُهم حوالبك في عيش وخير زمان
فقال مَضَوْا واستودعوني ديارهم وَمَنْ ذَا الَّذِي يَبْقَى عَلَى الْحَدَّانِ؟^(٨)

(١) سورة الروم .

(٢) امم امرأة .

(٣) الجناب بفتح الجيم وكسر هـ امم لمواضع متفرقة في بلاد العرب ، وهو بالفتح خاصة
القضاء وما قرب من محلة القوم .

(٤) استعجم سكت وأمسك عن الجواب .

(٥) الخلق بحركة : البالي .

(٦) الباقر : جماعة البقر مع رعائهم .

(٧) بذال معجمة جيل نجد .

(٨) حدّان الدهر وحوادثه : توبه وما يحدث منه ، واحداها حادث .

وإنما تعتبر هذه الأشياء لمن اعتبر بها ، وتُرى لمن طلب البيان منها ؛
ولذلك جعل الله الآية لمن توسم ^(١) وتفكر ، وعقل وتذكر ؛ فقال : ^(٢) «إِنَّ
فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ» ^(٣) «وإِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» ^(٤)
و ^(٥) «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ» ؛ فهذا وجه بيان الأشياء بذواتها
لمن اعتبر بها وطلب البيان منها .

فإذا حصل هذا البيان للتفكر صار عالما بمعاني الأشياء ، وكان ما يعتقد
من ذلك بيانا ثانيا غير ذلك البيان ، وخص باسم ^(٦) «الاعتقاد» . ولما كان
ما يعتقد الإنسان من هذا البيان يحصل في نفسه غير متمد له إلى غيره ،
وكان الله عز وجل قد أراد أن يتم فضيلة الإنسان ، خلق له اللسان
وأنطقه بالبيان ، فخبّر به عما في نفسه من الحكمة التي أفادها والمعرفة التي
اكتسبها ، فصار ذلك بيانا ثالثا أوضح مما تقدمه وأعم نفعا ؛ لأن الإنسان
يشارك فيه مع غيره ، والذي قبله إنما يتفرد به وحده . إلا أن البيانيين
الأولين بالطبع ، فلا يتغيران ، وهذا البيان والآتي بعده بالوضع فهما يتغيران
بتغير اللغات ، ويتباينان بتباين الاصطلاحات . ألا ترى أن الشمس
واحدة في ذاتها ؛ وكذلك هي في اعتقاد العربي ثم العجمي . فإذا صرت
إلى اسمها وجدته في كل لسان من الألسن بخلاف ما هو في غيره ، وكذلك
الكتاب ، فإن الصور والحروف تتغير فيه بتغير لغات أصحابه ، وإن كانت
الإشياء غير متغيرة بتغير الألسن المترجمة عنها .

(١) يقال توسمت فيه الخير فترست ؛ مأخذه من الوسم أي عرفت فيه سمته وعلامته .

(٢) سورة الحجر .

(٣) سورة الرعد .

(٤) سورة النحل .

ولشرف البيان وفضيلة اللسان قال أمير المؤمنين ^(١) عليه السلام :
 ” المرء محبوب تحت لسانه ، فإذا تكلم ظهر “ ، وهذا من أشرف الكلام
 وأحسنه ، وأكثره معنى وأخصره ، لأنك لا تعرف الرجل حق معرفته إلا
 إذا خاطبته وسمعت منطقته ، ولذلك قال بعضهم وقد سئل : ” في كم
 تعرف الرجل ؟ “ قال : ” إن سكت ففي يوم ، وإن نطق ففي ساعة “ ،
 وقال بعض الحكماء : ” إن الله عز وجل أعلى درجة اللسان على سائر
 الجوارح وأنطقه بتوحيده “ . وقال الشاعر :

وهذا اللسان يريد ^(٢) الفؤاد يدل الرجال على عقله
 وقال الآخر :

وكان ترى من مُعْجِبٍ لك صامتٍ زيادته أو نقصه في التكليم

واللسان هو ترجمان اللب ، ويريد القلب ، والمبين عن الاعتقاد بالصحة
 أو الفساد ، وفيه الجمال ، كما قال الله عز وجل : وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ
 الْقَوْلِ ^(٣) . وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم وقد سأله العباس رضي الله
 عنه بعرفة فقال : فيم الجمال يا رسول الله ؟ فقال : ” في اللسان “ . إلا أنه
 لما كان النقص للناس شاملاً ، والجهل في أكثرهم فاشياً ، وكان كثير
 منهم يسرع إلى القول في غير موضعه ، ويعجب بما ليس بمعجب من

(١) هو الإمام علي بن أبي طالب .

(٢) يريد هنا الرسول .

(٣) سورة محمد ، ولحن له قال قولاً يقهقه عنه ويحكي على غيره .

منطقه ، احتاطت العلماء على الدهماء ^(١) بأن أمروهم بالصمت ، ومدحوه
عندهم ، وأعلموهم أن الخطأ في السكوت أيسر من الخطأ في القول ،
[هـ] وقالوا كلهم : ” عثرة اللسان لا تستقال ” ^(٢) وقال الشاعر :

وجرح اللسان بجرح اليد

وقال آخر :

يموت الفتي من عثرة بلسانه وليس يموت المرء من عثرة الرجل ^(٣)
وعرفوهم أن الفائدة في الصمت لصاحبه ، والفائدة في النطق لغيره .
وقال بعضهم وقد سئل عن لزومه الصمت فقال : ” أسكت لأسلم
وأصمت لأعلم ” .

وقيل : ” الصمت حُكْمٌ ” ^(٤) وَقَلِيلٌ فَاِعْمَلْهُ ” . وقال أمير المؤمنين
عليه السلام : ” من كثر كلامه كثرت سقطته ” ، قال : وقال النبي صلى
الله عليه وسلم : وهل يَكْبُ ^(٥) الناس على منابرهم في نار جهنم إلا حصائد

(١) العامة .

(٢) يقال أقال الله فلانا عثرة بمعنى الصفح عنه . وأصله من أفلته البيع فصحته .

(٣) بهامش الأصل إزاء هذا البيت تمامه :

فغترته من فيه ترى برأسه وغترته بالرجل تبرا على مهل

ثم بإزاء هذه الأسطر بالأصل حاشية غير واضحة .

(٤) أي علم رفيقه ، قال تعالى ” وآتيناها الحكم صبيا ” وفي الحديث ” إن من الشعر لحكماً ”

أي أن في الشعر كلاماً نافعا ينهى عن الجهل والسفه

(٥) يقلبهم ويصرعهم .

ألسنتهم^(١)“. وقال بعض الفلاسفة لرجل سمعه يكثر الكلام : ” يا هذا ! أنصف أذنك من لسانك ، فإنما جعل لك أذنان ولسان واحد لتسمع أكثر مما تقول “ : وقال الشاعر :

وفي الصمت ستر للنبي وإنما فضيحة لب المرء أن يتكلم

وكل هذا إنما أرادوا به حجب^(٢) الناس عن الكلام فيما لا يعلمون والتسرع إلى إطلاق ما لا يحصلون . وكما أن الصمت في أوقاته وعند الاستغناء عنه حسن ، فإن الكلام في أوقاته وعند الحاجة إليه أحسن . وقد روى عن علي بن الحسين رضي الله عنه قول انتظم معنى ما أرادته العلماء في النطق بأخصر قول وأشبهه بكلام أمثاله ، فقال : ” السكوت عما لا يعنك أمثل من الكلام فيه ، والكلام فيما يعنك خير من السكوت عنه “ . وحسب الأديب أن يستشعر هذا القول ، فإنه يهجم به على محاسن الأمرين إن شاء الله .

وقد بصمت الإنسان ويستعمل الكتمان لمخافة أو رغبة ، أو لإسرار عداوة أو بغضة ، فيظهر في حركاته ولحظاته ما يبين عن ضميره ويبدى مكنونه ؛ مثل ما يظهر من الدمع عند فقد الأحبة ، ومن تغير النظر عند معاينة أهل العداوة . ولذلك قال الشاعر :

إذا لقيناهم نمت عيونهم والعين تظهر ما في القلب أو تصف

وهذا من بيان الأشياء بذواتها وهو من الباب الأول .

(١) أي ما فاته الألسنة من الكلام الذي لا خير فيه ، والحصاد واحدتها حصيدة وهي

الزرع المحصود .

(٢) منهم .

[٢٥]

ثم إن الله عز وجل لما علم أن بيان اللسان مقصور على الشاهد دون الغائب ، وعلى الحاضر دون الغابر ، وأراد تعالى أن يعم بالنفع في البيان جميع أصناف العباد ، وسائر آفاق البلاد ، وأن يساوي فيه بين الماضين من خلقه والآتين ، والأوليين والآخرين ، ألهم عباده تصوير كلامهم بحروف أصطلحوا عليها ، فخلدوا بذلك علومهم لمن بعدهم ، وعبروا به عن ألفاظهم ونالوا به ما بعد عنهم ، وكملت بذلك نعمة الله عليهم ، وبلغوا به الغاية التي قصدتها عز وجل من إفهامهم وإيجاب المحجة عليهم . ولولا الكتاب الذي قيد على الناس أخبار الماضين ، لم تجب حجة الأنبياء على من أتى بعدهم ولا كان النقل يصح عنهم . ولذلك صارت الأمم التي ليس لها كتاب قليلة العلوم والآداب . وقد امتدح الله عز وجل تعليم الكتاب في كتابه وبين احتجاجة على الناس فقال : ” أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ “ (١) . وقال عز وجل : ” أَوَلَمْ نَأْتِهِمْ بَيِّنَةً مَا فِي الصَّحُفِ الْأُولَى “ (٢) . وقال : ” أَشْتَوَى بِكُتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ “ (٣) .

كل هذه الأقسام التي ذكرناها من البيان لا تخلو من أن تكون ظاهرة جليلة أو باطنة خفية ، وذلك لما دبره الله عز وجل في هذا من الحكمة والدلالة عليه ، لأنه جعل بعض خلائقه محتاجا إلى البعض ، فالظاهر محتاج إلى الباطن لأنه معنى له ، والباطن محتاج إلى الظاهر لأنه دليل عليه ، وكذلك سائر مصنوعات الله عز وجل محتاج بعضها إلى بعض

(١) سورة القلم .

(٢) سورة طه .

(٣) سورة الأحقاف . والأثارة البقية تؤثر أي تورث .

ليعلم الانسان أنه ليس يستغنى شيء بنفسه ويقوم بذاته غير الله تعالى ، وكل ما سواه فإنما هو بغيره . ولو جعل تبارك وتعالى الأشياء كلها ظاهرة لتساوى الناس في العلم ولم يتفاضلوا فيه . وفي تساوى الناس — حتى لا يكون فيهم رؤساء متبعون وأتباع مطيعون — بوارهم . وقد قيل : ” لا يزال الناس

بخير ما تباينوا ، فاذا تساوا هلكوا “ ، وعلى ما قلناه دبرهم . وقال في [٦] كتابه : ” وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ .. “ (١) الى آخر الآيات ، فجعل علم آدم بما أظهره له وأخفاه عن ملائكته دليلاً على فضله ورياسته ، وأنه المستحق من بينهم ما أفضى إليه من خلافته (٢) لأن من حكمه ألا يسوى بين العالم وغيره . ولو سوى بين الملائكة وبينه في علم ما علمه إياه لم يكن هناك تفاضل يوجب له المنزلة التي جعلها له . ولو جعل ، تقدست أسماؤه ، الأشياء كلها خفية لم يكن إلى علم شيء سبيل ولتساوى الناس في الجهل ، لكنه بمكنه ومتقن صنعته جعل بعضها ظاهراً مستغنيا بظهوره عن طلبه ، وبعضها باطناً يحتاج (٣) إلى إظهاره والفحص عنه ، وجعل الظاهر دليلاً على الباطن وسُلماً إليه . ولم يقع من عباده بعلم الظاهر من الأشياء حتى يعرفوا معانيه وباطن تأويله ، ودم من اقتصر على علم ظواهر الأمور دون بواطنها ، ونفى العلم عنهم ، فقال : ” وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ “ (٤) وشبه من حمل التوراة حمل حفظ لظواهرها من

(١) سورة البقرة .

(٢) أى نيابته عنه سبحانه وتعالى في الأرض .

(٣) في الأصل « يحتاج » .

(٤) سورة الروم .

غير تدبر لمعانيتها بالحمار ، فقال : ” مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا “ (١) . وقال في ذم قوم : ” بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما ياتهم تأويله “ (٢) . وقال : ” وكذلك يحثيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث “ (٣) . وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : ” نية المؤمن خير من عمله “ . والنية باطنة والعمل ظاهر . ولذلك لم يقع بعلم الباطن والعمل به دون الظاهر . وقال عز وجل : ” قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن “ (٤) . وأعلمنا أن بالظاهر تقام الحجة ، فقال : ” قل سموهم أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض أم ينطق من القول “ (٥) . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” الإيمان عقد بالقلب ، وقول اللسان ، وعمل بالأركان “ ، وليس الإيمان بالتخلي ولا بالتبني ، ولكنه ما وقر في النفوس وصدقته الأعمال . وذلك لأن النية مغيبة عنا ، وليس يعلمها إلا الله عز وجل وصاحبها ، وإنما يستدل عليها بالقول والعمل . ألا ترى أن الانسان إنما تعرف حكمته الباطنة بما يظهر من صحة قوله وإتقان عمله ؟ وبين في العقل أنه لما كان الظاهر سببا إلى الباطن وعلة لنتله والوصول إليه وجب (٦) أن يكون معلقا به وغير منفصل منه ، وأن يكون ما يدرك من فضيلة العلم منسوباً إليهما لاشتراكهما

(١) سورة الجمعة .

(٢) سورة يونس .

(٣) سورة يوسف . ويحثيك بصطفيك .

(٤) سورة الأعراف .

(٥) سورة الرعد .

(٦) زيادة يقتضها السياق .

في إيضاحه ، لأن العلة بالمعلول تدرك ، والمعلول بالعلة يوجد ، وألا يكون الأمر كما ظن قوم^(١) أزدلوا علم الظاهر وتركوا العلم والعمل به ، وهم مع ذلك مقرون أنهم لا يصلون إلى علم الباطن والإيضاح عن حقيقته إلا به ، بفعلوا ما لا تدرك الحاجة إلا به غير محتاج إليه ، وهذا هو المحال البين . ولو كان الأمر كما ظنوا لبطلت حقوق الناس وتعطلت تجارتهم ، وفسدت معاملاتهم ، وسقطت أخبارهم ، لأنهم إنما يعملون في جميع ذلك على الظاهر دون الباطن ، ووضوح هذا يغني عن الإطالة فيه .

(١) يعرض المؤلف هنا بالباطنية ، وهم بعض المتصوفة وعدة فرق إسلامية كالخرمية والقرامطة والاسماعيلية — تشترك كلها في القول بأن لكل ظاهر باطن ، ولكل تمزيل تأويل ، ويعولون في فهم القرآن والسنة على التأويل ، بخلاف أهل الظاهر الذين يأخذون بظاهر الآيات والأحاديث .

باب فيه البيان الأول

وهو "الاعتبار"

قد قلنا إن الأشياء تُبين بذواتها لمن تبين ، وتعبّر بمعانيها لمن اعتبر ، وإن بعض بيانها ظاهر وبعضه باطن ، ونحن نذكر ذلك ونشرحه فنقول :

إن الظاهر من ذلك ما أدرك الحس ، كتبيننا حرارة النار وبرودة الثلج عند الملاقاة لها ، وما أدرك بفطرة العقل التي تتساوى العقول فيها مثل تبيننا أن الزوج خلاف الفرد ، وأن الكل أكثر من الجزء . والباطن ما غاب عن الحس واختلفت العقول في إثباته . فالظاهر مستغن بظهوره عن الاستدلال عليه والاحتجاج له لأنه لاخلاف فيه ، والباطن هو المحتاج إلى أن يستدل عليه بضروب الاستدلال ، ويعتبر بوجوده المقاييس والأشكال ، والطريق إلى علم باطن الأشياء في ذاتها والوقوف على أحكامها ومعانيها ، من جنسين ، وهما "القياس والخبر" . وحجتنا في القياس أن الله قد قاس في كتابه فقال لمن حرم وحل وهو جاحد للرسل الذين يأتون بالتحريم والتحليل : "أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمْ اللَّهُ بِهَذَا" (١) وقال : "قُلِ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ" (٢) فلما لم يمكنهم أن يدعوا أن الله عز وجل شافهم بذلك ، وكان من قولهم واعتقادهم إبطال الرسل الذين يؤيدون عن الله عز وجل أمره ، تبين لهم أن الذي شرعوه

(١) سورة الأنعام .

(٢) سورة يونس .

لأنفسهم ضلال و بهتان ، من غير حجة ولا سلطان ، فقال لهم بعد أن تبين ذلك منهم : ” فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ “ (١) . ومن الحديث ما حدث به زُبَيْدُ الْإِيَامِي (٢) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” كل قوم على رِقْبَةٍ من أمرهم ومَفْلَحَةٍ عند أنفسهم يَرِدُونَ على من سواهم “ . والحق في ذلك يعرف بالمقايسة عند ذوى الألباب .

وأما الخبر فحجتنا فيه من الكتاب قول الله عز وجل : ” فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ “ (٣) ” فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَاقُرْءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ “ (٤) . ولم يكن ليأمر بمسألتهم ، إذا لم نعلم ، إلا وأخبارهم تفيدنا علماً وتزيل عنا شكا . ومن الأثر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” نَضَرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاها فَأَدَّأها “ . وقوله : ” لِيُبَلِّغَ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ مِنْكُمْ “ ولم يأمر بذلك إلا وإبلاغ الشاهد الغائب يوجب المحجة ، واستماع الغائب من الشاهد يكسب علماً وفائدة .

(١) سورة الأنعام .

(٢) محدث توفي سنة ٥١٢ هـ . والآي مأثورة منسوب إلى أبيام ، بطن من قبيلة همدان .

(٣) سورة الأنبياء .

(٤) سورة يونس .

باب في ذكر القياس^(١)

والقياس في اللغة التمثيل والتشبيه ، وهما يقعان بين الأشياء في بعض معانيها لا في سائرهما ، لأنه ليس يجوز أن يشبه شيء شيئا في جميع صفاته ويكون غيره^(٢) . والتشبيه لا يخلو من أن يكون تشبيها في حد أو وصف أو اسم . فالشبه في الحد هو الذي يحكم لشبهه بمثل حكمه إذا وجد ، فيكون ذلك قياسا صادقا وبرهانا واضحا . والشبه في الوصف هو الذي يحكم لشبهه به في بعض الأشياء فيكون صادقا ، وفي بعضها فيكون كاذبا . والشبه في الاسم غير محكوم فيه بشيء إلا أن يكون الاسم مشتقا من وصف . ونحن نمثل ذلك فنقول : إن حلول الحركة في المتحرك لما كانت حدا له وجب أن يكون كل ما حلت فيه الحركة متحركا ، وهذا حق لا مطعن فيه . فأما السواد الذي هو من أوصاف الحبشى فليس حيث وجدناه حكما لحامله بأنه حبشى ، ومتى قلنا ذلك كنا مبطلين^(٣) ، ولكنا إذا قلنا إن بعض من يوصف بالسواد حبشى صدقنا . وأما زيد الذي هو من الأسماء فليس بموجب أن يكون بينه وبين غيره من اتفق له هذا الاسم مماثلة ولا مشابهة إلا أن يكون الاسم مشتقا من وصف فيلحق ما شاركه في ذلك الاشتقاق ما يلحقه ، مثل الأبيض الذي يسمى به كل من غلب البياض عليه لأنه مشتق منه . والاشتباه في الأسماء لا يوافق بين معانيها إذا اختلفت ذواتها ،

(١) يشتمل هذا الباب على كثير من الاصطلاحات المنطقية فيستعان في تفهيم التلاميذ معانيه بالمعلومات التي حصلوها في دروس المنطق .

(٢) في الأصل : فتكون عبرة ، وظاهر أنه تحريف .

(٣) أى آتئين بالباطل الذي هو ضد الحق .

فإن الموى الواقع على هوى النفس مخالف للهواء الذى بين السماء والأرض وإن اتفقا فى الاسم . وكذلك اختلاف الأسماء إذا اتفقت المعانى لا يوجب اختلافاً فى المعنى ، كالنأى والبعد ، وكلاهما واقع على معنى واحد . فمن أراد أن يحكم الأمر فى القياس فليصحح الكلام وليتفقد أمر الحد والوصف ويتأمل ذلك تأملاً شافياً حتى لا يجعل الوصف الذى يوجب الحكم الجزئى فى موضع الحد الذى يوجب الحكم الكلى ، وأن يثبت فى القضاء ولا يعجل فى الحكم ، فإن العجل موكل به الزلل . وقد قالت الحكماء : ” إن أحد أسباب الخطأ فى القضية قصر مدة الروية “ . وأكثر من غلط فى القياس إنما غلط من سوء التمثيل ومساهمة النفس فى ترك التحصيل والمبادرة إلى الحكم بغير روية ولا فكرة .

وليس يجب القياس إلا عن قول يتقدم فيكون القياس نتيجة ذلك ، [٨] كقولنا : إذا كان الحى حساساً متحركاً فالإنسان حى . وربما كان ذلك فى اللسان العربى مقدمة أو مقدمتين أو أكثر ، على قدر ما يتجه من إفهام المخاطب . فأمّا أصحاب المنطق فيقولون : إنه لا يجب قياس إلا عن مقدمتين لإحداهما بالأخرى تعلق . والقول على الحقيقة كما قالوا . وإنما يكتفى فى لسان العرب بمقدمة واحدة على التوسع وعلم المخاطب . والنتائج : إحداها ما صدر عن قول مُسلم فى العقل لا خلاف فيه ، فتكون النتيجة عنه ^(١) برهاناً كقولنا : إذا كان الزوج ما ركب من عددان متساويين فالأربعة زوج . والأخرى ما صدر عن قول مشهور إلا أنه مختلف فيه فتكون النتيجة عنه إقناعاً ، كقولنا : إذا كان حق البارئ عز وجل واجباً علينا لأنه علة لوجودنا فقد وجب حق الوالد أيضاً علينا . وصحة هذه

(١) فى الأصل ” ... عنه برهاناً “ .

النتيجة إنما تقع بالاحتجاج لمقدمتها حتى يعترف بها من لا يعترف ثم تصح .
والثالثة ما صدر عن قول كاذب وضع للغالطة ، كقولنا : إن اللصوص
يخرجون بالليل للسرقة ، ففلان سارق لأنه خرج بالليل ، وهذا باطل ،
لأن السارق ليس هو سارق من أجل خروجه ، ولا كل من خرج بالليل
فهو سارق .

و " الحد " مأخوذ من أصل الشيء الذى منه كونه ، وفصله الذى به
ينفصل من غيره . فان حد الحى هو الجسم الحساس المتحرك . فالجسم
أصله ، والحساس والمتحرك فصلاه اللذان ينفصل بهما من غيره من
الأجسام التى لا تتحرك ولا تحس . وكذلك حد الدار فإنه مأخوذ من
المدينة والمحلة التى هى منهما ومن الجهات التى تنفصل بها من غيرها .
وليس يتجه الحكم فى سائر المذاهب على شىء غير محدود ولا منفصل (١)
ألا ترى أنه متى شهد شاهدان على رجل بحق عند قاض احتيج أن يشهد
الشهود بنسبه الذى هو أصله ، وبعينه واسمه اللذين هما فصلاه اللذان
ينفصل بهما من غيره ، فان عرفوا ذلك وشهدوا به وإلا لم يمتض القاضى [٨ م]
حكما عليه . وكذلك الحق فى نفسه فإنه يحتاج إلى أن يذكر أصله من الورق
أو الذهب وفصله من الوزن والتقد فيقال ورقا (٢) أو عينا وزن سبعة
مناقيل ، فإذا فعل ذلك كان الحكم ماضيا بيقين من القاضى أنه قد أصاب
الحكم فيما أمره (٣) .

(١) فى الأصل : "مفصل" .

(٢) فى الأصل : " ورقا وزن سبعة أو عينا مناقيل " . والورق بكسر الراء الفصـة
والعين الذهب .

(٣) فى الأصل : " أمره به " .

وأما "الوصف" فهو ذكر بعض الأشياء التي تخص الشيء، وليست ثابتة على حدته، كما يقال في الدار إنها الواسعة أو الضيقة أو المبنية بالحصى والآجر، وكما يقال في الرجل الطويل الأسمر الأقنى^(١)، وكل هذه أوصاف لا تأتي على الحد بل يشترك الموصوف بها غيره فيها، ومثل ذلك التحلية^(٢) التي يستعملها الحكام والكُتاب فيمن لم يعرفوه باسمه وعينه ونسبه، فيكون وصفهم الرجل بحليته مقنعاً فيما يمكن من الاختياط إذا لم يحددوا سبيلاً إلى غير ذلك.

وأما "الاسم" فليس يقع به حكم ألبنة إلا أن يكون مشتقاً من وصف كالأبيض، وإنما يسمى بهذا الاسم كل من غلب البياض على لونه. والاشتقاق والوصف يعمل فيهما على الأغلب والأكثر. ألا ترى أن الزنجي حامل للبياض في ثغره وفي بياض عينيه، وأن الرومي حامل للسواد في حدقته وشعره. ولا يسمى الزنجي أبيض بما فيه من البياض ولا الرومي أسود بما فيه من السواد، لكن يسميان بالأغلب على ألوانهما. وإن دعت ضرورة إلى ذكر ما في الأسود من البياض أو في الأبيض من السواد لم يطلق ذلك لهما حتى ينسب إلى العضو الحامل له، فيقال الأبيض الشعر، والأسود الشعر. واعلم أن القول المنفي ليس بموجب حكماً غير حكم النفي وليس يحصل منه تشبيه ولا تمثيل يقع بهما قياس، وذلك كقولنا زيد غير قائم وعمرو غير قائم، فقد نفينا عنهما جميعاً القيام ولم نثبت لهما جميعاً اجتماعاً في معنى آخر، لأنه قد يجوز أن يكون أحدهما قاعداً والآخر

(١) قنا الأنف ارتفاع أخلاه واحديداً وسطه وسبوح طرفه.

(٢) وصف الحلية وهي الحلقة والصفة والصورة.

[٩] مضطجعا ، وكلاهما غير القيام . وكذلك إذا نفيت عن جسمين البياض لم تثبت لهما اجتماعاً في لون آخر من الحمرة أو الصفرة أو السواد . ولو شهد شاهدان عند حاكم بأن فلاناً لم يبع ضيعته من فلان لم يكن ذلك بموجب ألا ^(١) يكون فلان ملكها عليه ، لأن للملك وجوهاً كثيرة غير البيع ^(٢) ، ولذلك قالت القدماء : إن صفات البارئ عز وجل إنما ينبغي أن تكون بالسلب (يعنون النفي) ، لأنه لا يحصل منه في النفس ما يقع به تشبيه .

واعلم أن كل مطلوب إما أن يكون موجوداً أو غير موجود ، وأن الموجود إما أن يكون موجوداً بالحس كالمشعومات والمذوقات والأجسام والأشكال وما أشبه ذلك ، وإما أن يكون موجوداً بالعقل كوجود ما غاب عنا وكوجود الجوهر والبارئ عز وجل . وأن ما وجد بالعدل والعقل من الأشياء الغائبة التي لا تحس في ذواتها ، فإنها تتلقت بمبادئ المعرفة بها من الحس ، فيعرف الجوهر بالأعراض المحمولة فيه ، كما يعرف ذو اللون باللون وذو العدد ، وكما يعرف البارئ عز وجل بمصنوعاته وآثار فعله ، فإن ما يظهر من ذلك عند التأمل له دليل على أن الأشياء لم تكن بالاتفاق وأنها من قصد حكم دبرها وأحكم ما صنعه منها .

ودلالة الشيء تكون بأحد أربعة أوجه : إما "بالمشاكلة" ، وقد ذكرنا جملاً منها ^(٣) . وإما "بالمضادة" فإن الضد يكسب معرفة الضد ، فإنا إذا عرفنا الحياة وعلمنا أنها بالحس والحركة عرفنا ضدها الذي هو

(١) في الأصل : "إلا أن" بزيادة "أن" بعد إلا .

(٢) كالمية والوصية مثلا .

(٣) يشير إلى كلامه على التشبيه في الحد والوصف والاسم .

الموت وأنه بعدم الحسن والحركة . وإذا انتهى ^(١) أحد الضدين وجب الآخر ضرورةً إذا كان الضدان لا واسطة لهما كالموت ^(٢) والحياة، والحركة والسكون ، والضياء والظلام ؛ فأما إذا كانت بينهما واسطة فليس الأمر كذلك، وذلك كالسواد والبياض اللذين بينهما الحمرة والصفرة والحضرة، وكالقيام والقعود اللذين بينهما الاضطجاع والركوع والسجود . فنحن نعرف بالسواد ضده الذى هو البياض ، وبالقيام ضده الذى هو القعود . [م ٩] وإن نفينا السواد عن شيء لم يجب له البياض ضرورة ، كما أننا إذا نفينا عن الشيء الحياة وجب له الموت ضرورة ، لأن الحياة والموت لا واسطة لهما ، وهذه أضداد لها وسائل . وإما ”بالعرض“ كما يعرف الجسم بالطول والعرض . وإما ”بالفعل“ كما يدل الولد على الوالد ، والباب على النجار . فالمعقول من الموجودات التى لا تحس لا يحد، لأن الحد مأخوذ من الأصل والفصل كما قلنا . والأشياء المعقولة التى لا تحت الحس تقع وليست لها مادة تكون أصلاً لها، ولا تنفصل أيضاً من غيرها من المعقولات انفصلاً طبيعياً فيستعمل ذلك فى حدها ، وإنما تعرف بأسمائها وتوصف بأوصاف غير محيطة بحدودها ؛ فيقال فى الجوهر : الذى يحمل المتضادات فى أنواعه من غير تبديل يلحقه فى ذاته ، ويقال فى البارئ . إنه القديم الذى هو علة لمصنوعاته، وأشبه هذا . ألا ترى أن موسى عليه السلام لما سأله فرعون : ”وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ . قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ“ ^(٣) . ولما قال : ”فَمَنْ رَبُّكَ يَا مُوسَى قَالَ رَبُّنَا الَّذِي“

(١) فى الأصل : ”وإذا انتهى فى أحد الضدين وجب فى الآخر...“ بزيادة كلمة ”فى“

فى الموضعين .

(٢) فى الأصل : ”بالموت“ بإلحاق بدل الكاف .

(٣) سورة الشعراء .

أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى“ (١) ، فوصفه بأفعاله ولم يحته لامتناع الحد في ذاته .

قال (٢) : والأشياء التي يقع بها الوصف تسعة ، وهي أعراض كلها .
فمنها الحال ، كقولنا زيد ظريف ؛ ومنها العدد ، كقولنا المال درهمان ؛
ومنها المكان ، كقولنا زيد خلفك ، ومنها الزمان ، كقولنا جاءني زيد
أمس ؛ ومنها الإضافة ، كقولنا هذا ابن زيد ؛ ومنها القُنية (٣) ، كقولنا
هذا مالك وغلارك ؛ والنُصب ، كقولنا زيد مضطجع وقاعد ؛ ومنها
الفاعل ، كقولنا يضرب زيد ؛ ومنها المتفعل ، كقولنا زيد مضروب —
لا يكون وصف بغير هذه التسعة . فالحال قد تكون لازمة فتسمى هيئة ،
كبياض القطن وسواد الفحم ؛ وتكون غير لازمة فتخص باسم العرض
كصفرة الوجل وحمرة الخجل . والعدد منه منفصل ومنه متصل ، فالمتصل
ما كان له واسطة تجمع طرفيه وصار متصلا بالمادة ، كالدرهم والدرهمين
والأشكال والأماكن ؛ والمنفصل ما انفصل عن المادة ولم تكن له واسطة
تجمع بين طرفيه ، كالواحد والاثنين ، كالزمان الذي هو حركات الفلك
المفردة . والإضافة نسبة شيء إلى شيء يدور كل واحد منها على صاحبه ؛ فإن
الصديق صديق صديقه ، والجار جار جاره . والقُنية ، وهي الملك ، تشبه المضاف
من جهة الإضافة إلا أنها تخالفه بأنها لا تدور على الشيء لأننا إن قلنا في المال
إنه مال زيد فليس يجوز أن نقول في زيد إنه زيد المال كما قلنا في المضاف .

[١٠]

(١) سورة طه .

(٢) لعل كلمة "قال" زيادة من الناسخ .

(٣) الملك .

و ضد القُنية العَدَم . وليس يستحق المَعْدَم اسم العدم إلا بعد استحقاقه اسم القُنية ، لأننا لا نسمى الطفل فقيراً ، ولا جرو الكلب أعمى ؛ لأن الطفل لم يستحق أن يملك شيئاً فيعدمه ، وكذلك جرو الكلب لم يستحق أن يكون بصيراً فيعمى . والنصبة تشارك الحال ، وهي انتصاب الجسم وما يشاهد عليه من قيام أو قعود أو انحراف إلى بعض الجهات المحيطة به . وهي ست جهات : فوق ، وتحت ، وخلف ، ويمين ، وشمال ، وأمام . والفاعل هو الموقع فعله بغيره . وفعله ربما كان باقى الأثر كأثر النجار فى السرير ، أو غير باقى الأثر كضرب زيد عمراً . والمنفعل هو القابل لوقوع فعل الفاعل به وتأثيره فيه . وقد يفعل الشيء بطبعه ويفعل باختياره . فالفاعل بالطبع لا يمتنع من الفعل فى كل أوقاته وعلى كل أحواله ، كالنار التى تحرق كل ما لاقاها فى سائر الأوقات وعلى كل الأحوال . والفاعل بالاختيار هو الذى يعمل إذا أراد فعله ويمتنع منه متى آثر الامتناع منه ، كالكاآب الذى متى شاء كتب ، ومتى شاء أمسك عن الكتابة . ويقال فى المختار إذا أمسك عن العمل وهو قادر عليه متى هم به فاعل بالاستطاعة وبالقوة ، كالكاآب الذى يسمى بهذا وإن كان ممسكاً عن الكتابة ، لأنه مستطيع [م١٠] لها متى هم بها ، فإذا فعل الكتابة كان كاتباً بالفعل .

وأنواع البحث والسؤال تسعة أنواع : فأولها البحث عن الوجود بـ "هل" ، تقول : هل كان كذا وكذا ؟ فيقال "نعم" أو "لا" ، والثانى البحث عن أنواع الموجودات . بـ "ما" ، تقول : ما الإنسان ؟ فيقال الحى الناطق ؛ وما رأيك فى كذا وكذا ؟ فيقال رأى الفلانى . والثالث البحث عن

الفصل بين الموجودات بـ "أى" تقول : أى الأشكال المربع ؟ فيقال : هو الذى تحيط به أربعة خطوط ^(١) . والرابع البحث عن أحوال الموجودات بـ "كيف" ، تقول : كيف الإنسان ؟ فيقال : منتصب القامة . والخامس البحث عن عدد الموجودات بـ "كم" تقول : كم مالك ؟ فيقال : عشرون درهما . والسادس البحث عن زمن الموجودات بـ "متى" ، تقول : متى كان هذا ؟ فيقال : فى زمن الرشيد . والسابع البحث عن مكان الموجودات بـ "أين" تقول : أين زيد ؟ فيقال فى الدار . والثامن البحث عن أشخاص الموجودات بـ "من" تقول : من خرج ؟ فيقال : زيد . و "من" لا تستعمل إلا فى المسألة عمن ^(٢) يميز ويعقل . والتاسع البحث عن علل الموجودات بـ "لم" ^(٣) وليس يقع الجدل والحجة إلا فى العلة ، ولا يجب الحق والباطل إلا فيها . ونحن نذكر اعتبار العلل والواجب منها والفاسد إذا صرنا إلى ذكر الجدل فى كتابنا إن شاء الله .

فهذه جمل فى وجوه الاستدلال والقياس تدل ذا اللب على ما يحتاج إليه ، ومن أراد استيعاب ذلك نظر فى الكتب الموضوعة فى المنطق ، ولأنما جُعِلَتْ عِمَادًا وَعِيَارًا عَلَى الْعَقْلِ وَمَقْوَمَةً لِمَا يُخْشَى زَلُّهُ ، كما جعل البركار

(١) يحسن أن تراد « متداوية » ليكون كل خطين متجاورين منها زاوية قائمة .

(٢) فى الأصل : « عما » .

(٣) لم يمثل المؤلف للسؤال بـ « لم » إحالة منه على باب الجدل من هذا الحجاب .

لتقويم الدائرة ، والمسطرة لتقويم الخط ، وجعل الميزان مثالا للقياس
والموازنة بين المتشابهين ثلاثا تقع المحارفة ^(١) والبخس ^(٢) في الحقوق
وليكون الإنسان على يقين من الإصابة في ذلك . وقد أتى المتقدمون في جميع
هذه الأحوال بما فيه كفاية لمن فهم .

[١١]

باب الخبر

وأما الخبر ، فمنه يقين ، ومنه تصديق :

فاليقين ينقسم ثلاثة أقسام : أحدها خبر الاستفاضة والتواتر الذي
يأتي على ألسن الجماعة المتباينة همهم وإراداتهم وبلدانهم ، ولا يجوز أن
يتلاقوا فيه ويتواطأوا عليه ، فذلك يقين يلزم العقل الإقرار بصحته . وبهذا
النوع من الأخبار ألزمنا الله حجج الأنبياء ونحن لم نشاهدهم ولم نر آياتهم
ولم نسمع احتجاجهم على قومهم . وذلك من تسخير الله الناس حتى تقوم
الحجة ، وإلا فكل واحد من الناس يجوز عليه الصدق والكذب ، فإذا
تواترت أخبارهم كان ذلك زائدا حقا لما قدمناه ، وليس التواتر فعلهم
فيجوز أن يفعلوا ضده ، وإنما هو شاهد لصدقهم ودليل عليه . والدليل غير
المدلول عليه ، فقولهم محتمل الصدق والكذب ، لأنه فعلهم وهم ممكنون
مختارون ، والتواتر والاستفاضة معنى آخر ليس من فعلهم ولا من اختيارهم
وهو دليل الصدق إذا وجد . وليس هذا في أخبار العدول ^(٣) دون الفساق ^(٤)

(١) المحارفة التشديد في المعاملة والتضييق في المعاش ونقص الخط .

(٢) البخس . التقص . الظلم .

(٣) المراكزون المقبولو الشهادة .

(٤) الذين لا تقبل شهادتهم لعصيانهم ونزوحهم عن طريق الحق .

ولا المؤمنين دون الكفار ، لكنه في أخبار الجماعة كلها . ولو كان لا يقبل من التواتر إلا ما أتى به أهل الإيمان لم يكن لأحد من المخالفين علوم ينقلونها ولا أخبار يرثونها . وقد تكلمنا في هذا الباب في كتابي "الحجة" و "الإيضاح" بما أغنى عن إعادته . وليس يخالفنا فيه أحد من أهل ملتنا فنحتاج إلى زيادة في الشرح له والاحتجاج فيه .

والثاني خبر الرسل عليهم السلام ومن جهر من الأئمة الذين قامت البراهين والحجج من العقل عند ذوى العقول على صدقهم وعصمتهم ، وظهور المعجزات التي لا يجوز أن تكون بنوع من الحيل وليس في طبع البشر الإتيان بمثلها على أيديهم ؛ فدلّت من ليس علم المعقولات والتميز بين المتشابهات من شأنه ، على أن هذه الأشياء إنما أُجريت على أيديهم ليعلم أنهم عن الله عز وجل نطقوا ، وعليه في أخبارهم ^(١) عنه صدقوا ؛ فتم الحجة بهم الغافل والجاهل ، والمميز والعاقل ، ولا تكون للناس على الله حجة بعد الرسل . ولو لم تكن أخبارهم حجة توجب في عقل من شاهد الأنبياء والأئمة أو نقلت [إليه ^(٢)] أخبارهم نقلا يوجب الحجة تصديقها ^(٣) ، لما قال عز من قائل : "لَيْلًا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بِعَدِّ الرُّسُلِ" ^(٤) . ولما أمر الله بطاعتهم فقال : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ" ^(٥) ، لأن الله عز وجل لا يأمر

(١) في الأصل "في أخباره".

(٢) زيادة يقتضيا السياق.

(٣) سياق الكلام يقتضى أن يكون "تصديقها" مفعولا "توجب" الأولى .

(٤) سورة النساء .

(٥) سورة النساء .

بطاعة من يعلم أنه يعصيه أو يكذب عليه . وقد ذكرنا هذا الباب في كتاب
 ”الإيضاح“ بما أغنى عن إعادته والإطالة فيه .

والثالث ما تواترت أخبار الخاصة به مما لم تشهد العامة ، فإن تواترهم
 في ذلك نظير تواتر العامة . وقد بين الله عز وجل لزوم ذلك ووجوب
 التصديق به فقال : ”أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَءِيلَ“ (١)
 فجعل علماءهم مع علمهم وهم الخاصة به ، حجة على العامة .

وأما خبر ”التصديق“ فهو الخبر الذي يأتي [به] (٢) الرجل والرجلان
 والأكثر فيما لا يوصل إلى معرفته من القياس والتواتر ولا أخبار المعصومين (٣)
 ولا يعلم إلا من جهة الآحاد ، وذلك مثل الفتيا من حوادث الدين التي
 ابتلي بها قوم دون آخرين ، فسألوا عنها فحُبروا بالواجب فيها فنقلوا ذلك
 ولم يعرفه غيرهم . وليس يقع ذلك في أصول الدين التي يتساوى الناس فيها
 وفي فرضها . والناس محتاجون إلى الأخذ بهذه الأخبار في معاملاتهم
 ومتاجراتهم ومكاتباتهم ، فإن ذلك أجمع مما لا يقوم البرهان على صدق
 المخبر به من عقل ولا تواتر ولا خبر معصوم ، وإنما يعمل في جميعه على خبر
 من حسن الظن به ولم يُعرف بفسق ولم يظهر منه كذب . وقد أبى قبول
 خبر الواحد قوم من أهل الملة مع إقرارهم بأن النبي صلى الله عليه وسلم قد

(١) سورة الشعراء .

(٢) زيادة يقتضها السياق .

(٣) أي المنوعين من المعاصي

[١٢] بَلَّغَ مِنْ (١) نَأَى عَنْهُ بِالوَاحِدِ مِنْ أَصْحَابِهِ وَالْآخِثِينَ ، وَبَلَّغَ النِّسَاءَ الْمُخْتَدِرَاتِ (٢) اللِّوَاتِي لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِنَّ الْبُرُوزُ بِمَا أَلْزَمَهُنَّ إِيَّاهُ مِنْ قَبُولِ أَخْبَارِ أَزْوَاجِهِنَّ وَأَبَائِهِنَّ وَأَبْنَائِهِنَّ ، وَكُلُّ هَؤُلَاءِ آحَادٌ . وَقَدْ اسْتَفْصَيْنَا الْكَلَامَ فِي هَذَا فِي كِتَابِ " الْحِجَّةِ " .

وقد استنبط علم باطن الأشياء بوجه ثالث وهو الظن والتخمين ، وذلك فيما لا يوصل إليه بقياس ولا يأتي فيه خبر . وفي الظن حق وباطل : ولذلك قال الله عز وجل : " إِنْ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ " (٣) وقال في موضع آخر فأخرجه مخرج اليقين : " وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ " (٤) . وظن كل امرئ على مقدار عقله ، فإن كان عقله صحيحاً وتميزه معتدلاً وعلمه ثاقباً وسلم من متابعة الهوى فيما يوقع الظن فيه ، فقد صدق ظنه . وقد قيل " ظن الرجل قطعة من عقله " . وقيل : " ما ازدحمت الظنون على سر إلا أظهرته " . وقال أردشير (٥) : " الظنون مفاتيح اليقين " . قال الشاعر :

الألمعى (٦) الذي يظن لك الظن — كأن قد رأى وقد سمعاً

(١) في الأصل " ما " بدل " من " .

(٢) الخلد بالكسر ستره ، الحجارية ناحية البيت ، والمختدرات النساء . الملازمات الخلدورهن أى يمتحن .

(٣) سورة الحجرات .

(٤) سورة التوبة .

(٥) أعم عقده من ملوك الدولة الساسانية الفارسية . أشهرهم أردشير بن بابك مؤسس الدولة المذكورة ، وقد حكم من عام ٢٢٦ إلى عام ٢٤١ م . والغالب أنه المراد هنا لكثرة ما ينسب إليه من الحكم والآداب السلطانية .

(٦) الذكي المتوقد للذهن .

وقال آخر :

تناصرت الظنونُ عليك عندي وبعضُ الظنِّ كالعلمِ اليقينِ

وقد حكم عمر بن الخطاب في القوم الذين قاسمهم أموالهم بهذا النحو . فإنه قاسمهم ^(١) على الظن فيهم ، ولو تبين خيانتهم أموال المسلمين لما وسعه أن يأخذ بعض ذلك . ويدع عليهم بعضه ، لكنه لما ظهر له منهم ما يوجب التهمة ، ولم يقو في نفسه قوة اليقين ، قاسمهم . ومن الظن العيافة ^(٢) والقيافة ^(٣) ، والزحر ^(٤) ، والكهانة ^(٥) ، واستخراج المعنى ^(٦) والمترجم ^(٧) من الكتب — فكل ذلك إنما ابتدأه الظن . والتطير ^(٨) فمرة يجعلون الغراب دليلا على الغربة ، والبان ^(٩) على البين ، والقضب ^(١٠) على قضب النوى ، فيزجرون على الأسماء واشتقاقها دون المعاني . قال الشاعر :

(١) أي أخذ ليت المال نصف الأموال التي اكتسبها فيما سوى عظامهم . ومن قاسم عمر سعد بن أبي وقاص وعمر بن العاص .

(٢) العيافة أن تعتبر بأسماء الطير ومساقطها أو غيرها من الأشياء فتسعد أو تشام .

(٣) القيافة على قسمين : قيافة الأثر ، وقيافة البشر ، فالأولى تتبع آثار الأقدام والأخفاف والخواف في البحث عن الغار من الناس ، والضال من الحيوان . والثانية الاستدلال بينة الإنسان وشكله على نفسه .

(٤) الزجر هو العيافة بمعناها المتقدم في التعليق .

(٥) الكهانة ادعاء العلم بمعانيات الأمور والإخبار بها ، ومن كهان العرب شق وسطح .

(٦) هو الخفى من معاني الكلام .

(٧) المحتاج إلى تفسيره الترجمان وهو المفسر للسان .

(٨) التشاؤم .

(٩) شجر يسمو ويطول في استواء وليس خشبه صلبة ، واحدة بانه .

(١٠) ما قطع من الأنجار للنهام أو الفنى .

رأيت غراباً ساقطاً فوق قَضْبَةٍ من القَضْب لم يَنْبُت لها ورق خضرٌ

فقلت غرابٌ لا غرابٌ ، وقضبة لقضب النوى ، هذى العيافة والزجر

ومرة يزجرون على الأحوال ، فيكرهون الأعضب (١) ، والأعور ،

[١٢] والناقص الخلق لما فيهم من التقصير عن التمام ، ويكرهون الشيخ لإدبار

عمره ، والأحذب لظهور عاهته ، كما قال الشاعر :

ولم أغد في أمر أُوْمَلْ بُجَحَ فقابلني إلا غرابٌ وأرنبٌ

فإن كان من إنس فلا شك كافرٌ وإلا فشيخٌ أعورُ العين أحذبٌ

وإنما يتشاءمون بالأرنب لقصر يديها ، فكأنه إذا مَدَّ يده إلى شيء ، يريد

نيله فقابلته أرنب ، فقد بينت له وهي قصيرة اليد أن يده تقصر عن نيل

ما أرادته ومدَّ إليه يده . وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع

بعض القافة (٢) وقد رأى رجلاً أسامة بن زيد (٣) ورجل أبيه يقول : هذه

أقدام بعضها من بعض ، فسَّرَ بذلك . وحكم أهل الحجاز بقول القافة في الولد

من الأمة إذا جمَّده أبوه أو شك فيه .

فاذا اردت أن يصدق ظنك فيما تطلبه بالظن مما لا تصل إلى معرفته

بقياس ولا خبر ، فاقسم الشيء الذي يقع فيه ظنك إلى سائر أقسامه في العقل ،

وأعط كل قسم حقه من التأمل ، فاذا اتجه لك أن الحق في بعض ذلك

على أكبر الظن وأغلب الرأي ، جازمت عليه وأوقعت الوهم على صحته ، وذلك

(١) المكسور القرن .

(٢) جمع قافط وقد سبق شرحه .

(٣) أسامة بن زيد بن حارثة مولى النبي صلى الله عليه وسلم وابن مولا .

أن تظن بإنسان لك عداوةً ولا يتبين ذلك في تغيير وجهه ، ولا نبو ^(١) طرفه عنك ولا في شيء مما يظهر من فعله بك ، فتحضر الأشياء التي توقع العداوة بين المتعادين ببالك ، وهي : الشراكة ، والمناسبة ، والمنازعة ، والميراث ، والجوار ، والمنزلة المتنازعة ، والخلاف في الديانة ، والحقد ، والثرة ^(٢) والإساءة المتقدمة . وما أشبه ذلك من الوجوه الموجبة للعداوة ، ثم تنظر ، فإن اجتمعت بينكما تلك الأحوال أو أكثرها أوقعت وهلك على أنه لك عدو ، وكانت قوة التوهم منك في ذلك على حسب كثرة ما يجتمع بينكما من الأحوال الموجبة للعداوة ، فتجنبته وعاملته معاملة العدو الذي قد بان أمره . وإن وجدته ينفرد ببعضها استبريت ^(٣) صحة الظن بأن تنظر هل يجمعكما بعض ما يوجب اللطف والمودة ويزيل بلية تلك الخلّة ، من موافقة في مذهب ، أو إحسان متقدم ، أو غير ذلك ، ثم وازنت بين الخلال الموجبة للعداوة والخلال الموجبة للصدقة ، وكنت في حيز الأقوى من الصنفين . وإن لم تجد بينكما ما يوجب العداوة أزلت عن قلبك باب الظنة وكنت على ما لم تزل عليه لصاحبك من الثقة . وقد استخرج أمير المؤمنين عليه السلام أشياء من الأحكام ، لما عديم البينات فيها وتجاهد أهل الدعوى ولزموا الإنكار ، بهذا النوع من الاستخراج ، فمن ذلك أنه لما أتى بامرأته وصبي وادعت كل منهما أن الصبي ابنها ، أعمل فكره وظنه ، فعلم أن من شأن الوالدة الرقة على ولدها والمحبة لدفع الآفة عنه ، فقال لقنبر ^(٤)

(١) يقال نبا بصره عن الشيء . نبوا : تحافى عنه ولم ينظر إليه .

(٢) الثرة : النحل والظلم — من وثر بر وثرا وثرة .

(٣) يقال : استبرأت الشيء . اذا بلغت غايته لتقطع الشبهة عنك فيه خففت همزته .

(٤) امم مولد الإمام علي بن أبي طالب .

خذ السيف واقطع الولد نصفين وادفع إلى كل واحدة منهما نصفه ، فلما سمعت الوالدة بذلك أدركها الإشفاق فقالت : أنا أسمع بحصتي لصاحبي ، فعلم أنه ابنها فسلمه إليها . وكذلك فعل بالرجلين اللذين ادعى كل واحد منهما أن الآخر عبده ، فإنه علم ما يتداخل النفس من الخزع عند معاينة الموت وأن تلك الحال تذهل عن لزوم الدعوى وتشغل عن طلب الحق ، فقدمهما ومد أعناقهما وقال لبعض أصحابه : اضرب عنق العبد ! ففنى العبد عنقه حذراً من السيف وظهر بذلك أنه العبد دون الآخر فسلمه إلى صاحبه . فكل هذه الأحوال التي عددناها إنما تقع أوائلها بالظن ، فإن شهد لها ما يخرجها إلى اليقين صارت يقيناً وإلا كانت تهمة وظنة وإثماً . ألا ترى أنك تظن بالترجمة أنها حروف ما ، فإذا أدركتها في سائر المواضع التي تثبت صورها فيها وامتحنتها فوجدتها مصدقة لظنك حكمت بصحتها وإذا خالفت علمت أن ظنك لم يقع موقعه فأوقفته على غير تلك الحروف إلى أن تصح لك . ويشهد لما قلناه من أن الظن إذا لم يشهد له ما يقويه ويحققه فليس ينبغي أن يلتفت إليه ، قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ” ثلاث لا يسلّم منهن أحد : الطيرة ^(١) والظن والحسد “ ، قيل فما المخرج منهن يا رسول الله ؟ قال : ” إذا تطيرت فلا ترجع ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وإذا حسدت فلا تبغ “ .

وقد حصل لنا الآن من علوم ما تبين عنه الأشياء بذواتها ” يقين “ وهو ما تعترف العقول بصحته ويلزمها الإقرار به ، و ” تصديق “ وهو ما تقتنع النفوس به وإن كان في الممكن أن يقع غيره أوكد من موقعه ، و ” ظن “ قد احتيط فيه حتى وقع موقع اليقين عند استعماله . وقد شبهت القدماء

(١) ما ينشأ به .

”اليقين“ من هذه العلوم بحكم القاضي ^(١) ، و”التصديق“ بحكم صاحب المظالم ^(٢) ، و”الظن“ بحكم صاحب ^(٣) الشرطة . وطلبوا في الأشياء اليقين ، فإذا وجدوه تركوا غيره ، وإذا عدموه طلبوا الإقناع الذي يقع به التصديق ، فإذا وجدوه أخذوا به ، وإن لم يجدوه أعملوا الظن حتى يستخرجوا به ما يحتاجون إليه . وكذلك الحقوق إنما تطلب من الأحكام بالبيئة العادلة والشهادة القاطعة فيما يحضره العدول ^(٤) . فإن كان الحق مما لم يشهده العدول طلبوا الإقناع ، وطلب من أصحاب المظالم بالكشف ومسألة أهل الخبرة من المستورين ^(٥) والمجاورين ^(٦) . فإن كان مما لم يشهده أحد وأخذ سراً ، طلب من صاحب الشرطة فيوقع الظن على أهل التهمة ، ومن جرت عادته بالريبة ، فيبسط ^(٧) عليهم ويختال

(١) و (٢) و (٣) القضاء منصب الفصل بين المنازعين بمقتضى الأحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنة مع ثبوت الأدلة القاطعة . وكان هذا المنصب هو وحده المخصص بذلك في صدر الإسلام . فلما كثرت المشاحنات ، وضدت الدماء ، وكثر النصب والتعدي على الحقوق ، لم يعد نظام القضاء بمعناه السابق كافياً في ردع النفوس . فظهر نظام النظر في المظالم ، وهو أوسع نظراً من القضاء ، فلصاحبه اصطناع الأروهاب في تقرير الخصوم والحكم ببلية الظن والجواز وشواهد الأحوال . أما الشرطة فكان صاحبها يجعل للظن مجالاً في الحكم وكان يفرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم ولو وقعت العقوبة على بري . وتخطت جائياً .

(٤) هم الشهود الذين يقومون عن إذن القاضي بالشهادة بين الناس فيما لهم وعليهم . وتشرط فيهم العدالة الشرعية ، أي أن يكونوا ملازمين لواجبات الشرع ومستحياتة ، مجتنبين للحرمانات والمكروهات .

(٥) المعروفون بالعفة .

(٦) العاكفون بالمساجد .

(٧) أي يضع عليهم العقوبة ويخزوها .

في تقريرهم إلى أن يظهر ما عندهم . وقد يجوز أن يكون فيمن توقع التهمة عليه من هو بريء إلا أنه لا يوصل إلى استخراج الحقوق من اللصوص وأشباههم إلا بمثل هذه الحال . ولو طُلب في ذلك البينة من العدول المرضيين وأخبار المستورين من المجاورين ماتياً استخراج سرقة أبدأ . [١٤] فليس في هذه الأحكام الثلاثة ، إذا ^(١) خرج كل واحد منها من معدنه ؛ وجرى على ترتيب ما وضع له ، ما ينسب إلى جور ولا ظلم ؛ ولكن إذا اختلفت مواقعها ومخارجها ، فقضى القاضي بالكشف والمساءلة ؛ وقضى صاحب المظالم بالظن والتهمة ، وقضى صاحب الشرطة بالعدول والبينة — نسب كل واحد منهم إلى الجور ، لعدوله عما توجبه رتبته ، وخروجه عن الرسم الذي رُسم له . وكما لا يستغنى بواحد من هؤلاء الأحكام الثلاثة عن باقية ، فكذلك لا يستغنى في استخراج بواطن العلوم بواحد من هذه الوجوه التي ذكرناها عن سائرها . وهذا فيما أردنا ذكره من الاعتبار مقنع إن شاء الله .

(١) في الأصل : "... في هذه الأحكام الثلاثة ما إذا خرج " . زيادة "ما" .

باب في البيان الثاني

وهو "الاعتقاد"

قد قلنا : إن الأشياء إذا بينت بذواتها للعقول وترجمت عن معانيها وبواطنها للقلوب ، صار ما ينكشف للبين من حقيقتها معرفة وعلمًا مركزين في نفسه .

وهذا البيان على ثلاثة أضرب : فمنه حق لا شبهة فيه . ومنه علم مشتببه يحتاج إلى تقويته بالاحتجاج فيه ، ومنه باطل لا شك فيه .

فأما "الحق" الذي لا شبهة فيه فهو علم اليقين . واليقين ما ظهر عن مقدمات طبيعية ، كظهور الحرارة للمتطيب عند توقد اللون وسرعة النبض واحمرار البول ، أو عن مقدمات ظاهرة في العقل ، كظهور تساوي الأشياء إن كانت مساوية لشيء واحد ، وكظهور زيادة الكل على الجزء ، أو عن مقدمات خلقية مسلمة بين جميع الناس ، كظهور قبح الظلم ، وكل خبر أتى على التواتر^(١) من العامة أو التواتر من الخاصة أو سماع من الأنبياء والأئمة . وكل هذا يوجب العلم ، ومن شك في شيء منه كان آثمًا ، ولذلك صار من شك في الباري تعالى كافرًا ، لأن نتيجة المعرفة به في مقدمات ظاهرة للعقل ، وكذلك من شك فيما تواترت به الرواية أو تضمنه الكتاب الذي نقله من يجب بنقله المحجة .

[٢١٤]

(١) التواتر من الأخبار ما رواه جماعة يؤمن تواترهم على الكذب عادة ثم رواه عنهم مثلهم ، وهكذا حتى وصل إلينا ، وهو قطعي الدلالة عند الأصوليين .

وأما "المشتبه" الذي يحتاج إلى التثبت فيه وإقامة الحجّة على صحته فكل نتيجة ظهرت عن مقدمات غير طبيعية ولا ظاهرة للعقل بأنفسها ولا مسلمة عند جميع الناس ؛ بل تكون مسلمة عند أكثرهم أو تظهر للعقل بغيرها وبعد الفحص عنها والاستدلال عليها ، وذلك كراى كل قوم في مذاهبتهم وما يحتاجون به لتصحيح اعتقاداتهم ، وكل خبر آتى به الآحاد والجماعات التى لا تبلغ أن تكون نواتراً بل يجوز على مثلهم فى العدة الاجتماع على الكذب والاتفاق عليه ، إذا كانوا عدولاً ولم يخالف قولهم ما جرى به العرف والعادة . وذلك مثل روايات كل قوم فيما اعتقدوه وإخبارهم عن أهل العدالة عندهم فيما اجتنبوه ، وكل ظن قويّ شواهدة وكان الاحتياط فى الراى والدين تغلبه . وكل هذه الأمور التى عددناها فإنما يأتى العلم بها على طريق التصديق لا على اليقين ، والحجة على معنى الإقناع لا البرهان وهى توجب العمل ولا توجب العلم ؛ وليس على من شك فيها إثم ولا لوم ، وذلك كالحكم بالشاهدين وتصديقهما فى الحقوق ؛ وإن كنا لا نعلم حقيقة قولهما ولا نشهد بصحة غيبهما ، لأنهما قد يجوز أن يكونا كاذبين ، إلا أن علينا العمل بما شهدا به إذا كانا عدلين مرضيين . وكذلك ما أمانا من الأخبار فى الأحداث التى تنقض الوضوء ؛ من الدم السائل والفقهية فى قول العراقيين ، والملازمة ومس الذكر فى قول أهل الحجاز — فإن ذلك كله يوجب العمل على من صحت عنده عدالة المخبر له وليس يوجب العلم ، ولا يكون من شك فى ذلك أو يحجده آثماً . وأما الظن فإنه إذا قويّت شواهدة وعضده من الراى ما يوجبه ، فإنما يجب العمل عليه ولا يجب العلم بحقيقته . والفرق بينه وبين ما يأتى من الأخبار عن الآحاد ومن القياس المقنع أن ذلك مقبول على ظاهره ؛ فإننا نقبل كل خبر

جاءنا به من لاتهمه بكذب ، وكل نتيجة ظهرت عن مقدمة [صح] (١) استعمالها عند أهل النظر وإن لم تشهد بصحة ذلك ، ولسنا نقبل الظن على ظاهره ولا نعمل عليه ، إلا إذا شهد له غيره ، فهو تكبر الفاسق أو الكافر اللذين لا يكذبان ولا يصدقان فيه ، إلى أن يظهر لسامعهما ما يوجب التصديق أو التكذيب فيعمل عليه .

وأما « الباطل » الذي لا شك فيه فما ظهر عن مقدمات كاذبة مخالفة للطبيعة مضادة للعقل ، أو جاء في أخبار الكاذبين الذين يخبرون بالمحال وما يخالف العرف والعادة ، وذلك مثل اعتقاد السوفسطائية (٢) أنه لا حقيقة لشيء ، وأن الأمور كلها بالظن والحسبان . واعتقادهم حقيقة ما يقولونه دليل على أن الأشياء لها حقائق في نفسها وأنهم مبطلون في دعواهم . وكأخبار النصارى عن المسيح بأنه كان بشراً فصار إلهاً ، وكان محدثاً فصار قديماً ، وأن الواحد الذي هو جزء للثلاثة ثلاثة من غير تفريق ، وأن الثلاثة التي هي كل للواحد واحد من غير جمع وتركيب ، وإتيانهم في ذلك بالمحال الذي لا يعقل . ولما أن كان الله عز وجل قد أمرنا بأن نعتقد الحق ونقول به ، وألا نعتقد الباطل ولا ندين به ، فقال : « وَقُلِ الْحَقُّ مِنِّي »

(١) زيادة يقتضيها السياق .

(٢) اسم فرقة يونانية قديمة نصبت نفسها لتعليم الناشئة اليونانية طرق النجاح في الحياة بصرف النظر عن تحري الحق والفضيلة الذي كان دأب الفلاسفة فكان السوفسطائيون يتفقون النثر . تنقيها عاما ويعلمونه الخطابة والسياسة والجدل . ثم تطرقوا إلى تعليمه أساليب المناظرة في الجدل وشكيبك في حقائق الأشياء ومعانيها مما دعا إلى رميهم بإفساد أخلاق الناشئة . وقد حمل عليهم الفلاسفة وخاصة سقراط وأفلاطون وقضوا على حركتهم وحلوا محلهم آخر الأمر في تعليم الشعب اليوناني .

رَبِّكُمْ“ (١) ، وقال : ” أَلَمْ يَتَّخِذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقَ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ “ (٢) ، وعرفنا زهوق الباطل (٣) وخسران أهله ، فقال : ” وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا “ (٤) ، وقال : ” وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبِطِلُونَ “ (٥) ، وجب أن يحاط العاقل لنفسه ودينه فلا يعتقد إلا حقًا ، ولا يكذب إلا باطلًا ، ولا يقف إلا عند شبهة ، وحتى لا يكون ممن شهد بما لا يعلم أو كذب بما لم يحيط بعلمه .

وإذا نظرنا في الثلاثة الأضرب التي قدمنا ذكرها وجدنا من الواجب أن نعتقد صحة جميع ما ذكرنا أنه يقين وحق لا شبهة فيه ، ونشهد بصحة ذلك فلا تتخالج الشكوك فيه ، فإنما متى شككنا في شيء منه أخطأنا وأئبنا كما قلنا قبل هذا الموضع ، وأن ننظر فيما أتى من الصنف الثاني الذي قد وقع الاشتباه فيه وادعى كل قوم إصابة الحق فيه ، فإن كان مما أتى من جهة الآحاد والقياس احتطنا فيه بتصحيح المقدمات التي هي نتيجة وحراستها من المغالطة التي قدمنا ذكرها ، فإذا صحت ميزناها على كم وجه نقال إن كانت مما يقع لفظه على معان كثيرة ، وننظر أي وجه منها هو مراد المتكلم من قوله ، فإذا ميزنا ذلك استخرجنا فصولها التي تنفصل بها من غيرها حتى يظهر الحد الذي يفرق بينها وبين ما يباينها . فإذا فعلنا ذلك

(١) سورة الكهف .

(٢) سورة الأعراف .

(٣) أي الضميمة .

(٤) سورة الامراء .

(٥) سورة غافر .

صوحنا التشبيه وألحقنا كل شيء بما يشبهه . فإذا أثبتنا بذلك على هذا الترتيب والتحصيل صح لنا ما نريد تصحيحه بالقياس إن شاء الله . وإن كان مما أتى من جهة الآحاد^(١) من الخبر والجماعات القليلة العدد احتيط في ذلك ، أولاً بعرضه على العقول ، فإن باينها وضادها فهو باطل ، وإن لم ينافها وكان مما يجوز في العقل وقوع مثله ، يثبت^(٢) في أمر نقلها حتى لا تؤخذ إلا ممن ظهرت عدالته ولم يتهم بكذب ولا وهم في خبره ولم يكن فيما خبره جاراً إلى نفسه ولا دافعاً عنها ، ولم يعارضه خبر مثل خبره يطل ما خبره . وبجميع ما ذكرنا قد جاء القرآن وجرى الأحكام ، فقال الله عز وجل : ” وَأَشْهَدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ ”^(٣) . وقال : ” إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ ”^(٤) . وأجمعت الأمة على ألا تقبل دعوى أحد لنفسه ولا شهادته فيما جري إليها أو دفع عنها ، وعلى أن الأخبار إذا تكافأت بطلت^(٥) . ثم إن كان الخبر من أمر الدين عرض على كتاب الله عز وجل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فإن وجد مخالفاً خلافاً مضادة علم أنه ليس من رسول الله صلى الله عليه [١٦] وسلم ، لأن رسول الله لا يضاد كتاب الله . وإن كان الخلاف من جهة

(١) فصل بين الآحاد والجماعات بـ ” من الخبر “ الذي هو بيان لـ ” ما “ .

(٢) في الأصل : ” يثبت “ .

(٣) سورة الطلاق .

(٤) سورة الحجرات .

(٥) بمعنى أنه إذا جاءت الأخبار بالشيء وضده ولم يكن هناك ما يرجح منها جانباً على

جانب فاتها جميعها تعتبر باطلة .

خصوص وعموم^(١) ، وناسخ ومنسوخ^(٢) ، ومحكم ومتشابه^(٣) ، ومجمل ومفسر — كان ذلك معمولاً عليه مأخوذاً به على الشرائط التي ذكرناها في كتاب "التعبد". وإن لم يوجد لذلك أصل في كتاب الله وكان مما يجوز التعبد به فليس ينبغي أن يدفع ؛ لأن الله عز وجل قد شرع على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم شرائع لم يثبتها في كتابه ، فمنها رجم الزاني المحصن^(٤) والعين مع الشاهد^(٥) ، وتحريم كل ذى ناب ومخلب ،^(٦) وأشباه ذلك ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أوتيت الكتاب ومثله معه" أى من السنن التي شرعها الله على يديه . وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا ألفين أحدكم متكاً على أريكته ، يأتيه الأمر من أمري فيقول لا أدري ، ما وجدت في كتاب الله عملت به" ، بل يؤخذ إذا أتى عن الثقات وكان مما يجوز أن يتعبد الله به عباده ولم يضاد العقل والكتاب . وإذا أتت أخبار الثقات بالشىء وضده ، ولم يكن في نقلة الخبرين من ينهم بقلّة ضبط ولا وهم ، ولم يكن الخلاف في ذلك من جنس ما قدمنا ، إلا أنه من رواية الشيعة عن الأئمة عليهم السلام ؛ فقد علم أنهم عليهم السلام لا يأمرّون بالشىء وضده لأنهم حكماء ، والمناقضة عن الحكماء

- (١) الخاص ما هو عمومي يراد به الخصوص كقوله : "وأوتيت من كل شىء" .
والعام ما ليس مخصوصاً بل هو على عمومته كقوله : "والله بكل شىء عليم" .
(٢) النسخ في الحكم تبديله برفعه ووضع غيره مكانه ؛ فالناسخ كقوله : "واقتلوا المشركين" والمنسوخ كقوله : "لا إكراه في الدين" .
(٣) الحكم من القرآن ما كان ظاهر المعنى بحيث تناوله الأفهام كقوله : "قل هو الله أحد" والمتشابه ما ليس كذلك كقوله : "يد الله فوق أيديهم" .
(٤) أى المزوج .

(٥) أى إخراج المذمى العين مع وجود من يشهد له .

(٦) أى تحريم كل ما يأكل اللحم سباعاً كان أو طيراً .

منفية ، فقد أحاط العلم ^(١) بأن سبب الخلاف في ذلك إنما هو خروج الجواب في أحد الحالين على سبيل التقية ^(٢) والتقية إنما هي فيما خالف فتيا العامة ؛ فلذلك أوصوا عليهم السلام فيما يؤثر عنهم ولا يختلف فيه علماءهم بأن يعمل فيما تضادت به الرواية عنهم بما خالف فتيا العامة وعملها . وإن نقل إلينا أصحابهم عليهم السلام ما لا تعلم مخرجه ، وقفنا فيه ووكلناه إلى عالمه ، ولم نعتقد في شيء منه تصديقاً ولا تكذيباً ، إلى أن يتبين لنا ما يوجب أحدهما فتعقده ، إذ كان اعتقاد الباطل عندنا كدفع الحق ، وبذلك أمرونا فقالوا : ” الأمور ثلاثة : فأمر يتبين لك رشده فاتبعه ، وأمر يتبين لك غيبه فاجتنبه ، وأمر اشتبه عليك فكله إلى عالمه “ . وهذا ما في الاعتقاد وبالله التوفيق والسداد .

(١) قوله : ” فقد أحاط العلم “ جواب للشرط الذي صدرت به الجملة وهو قوله : ” وإذا أتت ... الخ “ . ويلاحظ أن بعد ما بين الشرط وجوابه ؛ مع كثرة ما في الكلام من اعتراض واستدراك ، قد أضعف تركيب الجملة ضعفاً ظاهراً

(٢) التقية أن يبيح المؤمن نفسه من الحكومات أو من العقوبة بما يظهر وإن كان على خلاف ما يضمّر ، وهم يرون فيها توسيعاً من الله على المؤمنين ودليلاً على جوازها قوله تعالى في سورة النحل : ” إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان “ .

باب فيه البيان الثالث

وهو " العبارة " (١)

وأما البيان بالقول فهو العبارة . وقد قلنا إنه يختلف باختلاف اللغات ، وإن كانت الأشياء المبين عنها غير مختلفة في ذواتها ، وإن منه ظاهرا ومنه باطنا ، وإن الظاهر منه غير محتاج إلى تفسير ، وإن الباطن هو المحتاج إلى التفسير ، وهو الذي يتوصل إليه بالقياس والنظر والاستدلال والخبر . ونحن نذكر الآن ذلك بشرحه إن شاء الله فنقول :

إن الذي يوصل إلى معرفته من باطن القول بالتمييز والقياس ، مثل قول الله عز وجل "اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ" (٢) . وهو لم يفوض إليهم أن يعملوا بما أحبوا ولم يخلهم من الأمر والنهي . ومثل قوله : "فَنَنْشَاءُ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ" (٣) ، وهو لم يطلق لهم الكفر ولم يحجم إياهم . فهذا وإن كان ظاهره التفويض إليهم فإن باطنه التهديد لهم والوعيد ويدل على ذلك بعقب هذا : "إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ يَلُوكَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا" (٤) ، وأما ما يوصل إليه بالخبر فمثل " الصلاة " التي هي في اللغة

(١) قد ضمن المؤلف هذا الباب كلامه على الوجه الرابع من أرجح البيان عنده وهو "البيان بالكاتب" (انظر ص ١٠) .

(٢) سورة فصلت .

(٣) سورة الكهف .

(٤) سورة الكهف . "أَعْتَدْنَا" هي نارة "سُرَادِقُهَا" فسطاطها ، وقيل دخانها و"المهل" الحديد اللزب "ومرتفقا" متكأ .

الدعاء ، و "الصيام" الذي هو الإمساك ، و "الكفر" الذي هو ستر الشيء ، فلولا ما أتانا من الخبر في شرح مراد الله في الصلاة والصيام ومعنى الكفر ، لما عرفنا باطن ذلك ولا مراد الله فيه ولا كان ظاهر اللغة يدل [١٧] عليه ، بل كما نسمى كل من دعا مصلياً ، وكل من أمسك عن شيء صائماً ، وكل من ستر شيئاً كافراً ، فلما أتانا الرسول صلى الله عليه وسلم بمحدود الصلاة من التكبير والركوع والسجود والتشهد ، وبمحدود الصيام من ترك الأكل والشرب والنكاح نهائياً ، وأن الكافر الذي يحمد الله ورسوله ، وصلنا إلى علم جميع ذلك بالخبر ، ولولاه ما عرفناه . ولغة العربية التي نزل بها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم البيان ، وجوه وأحكام ومعان وأقسام متى لم يقف عليها من يريد تفهم معانيها واستنباط ما يدل عليه لفظها ، لم يبلغ مراده ولم يصل إلى بغيته . فمنها ما هو عام للسان العرب وغيرهم ، ومنها ما هو خاص له دون غيره ، ويجمع ذلك في الأصل "الخبر" و "الطلب" . و "الخبر" كل قول أفدت به مستمعه ما لم يكن عنده ، كقولك : قام زيد ، فقد أفدته العلم بقيامه . ومن الخبر ما يتبدى بالخبر به ، فيُخص باسم "الخبر" . ومنه ما يأتي به بعد سؤال فيسمى "جواباً" كقولك في جواب من سألك : ما رأيك في كذا ؟ فتقول رأيي كذا . وهذا يجوز أن يكون ابتداء منك فيكون خبراً ، فإذا أتى بعد سؤال كان جواباً كما قلنا .

و "الطلب" كل ما طلبته من غيرك ، ومنه الاستفهام والدعاء والتمنى لأن ذلك كله طلب . فإنك إنما تطلب من الله بدعائك ومسألتك ، وتطلب من المنادى الإقبال عليك أو إليك ، وتطلب من المستفهم منه بذل الفائدة لك . ومن الاستفهام ما يكون سؤالاً عما لا تعلمه لتعلمه ، فيُخص باسم

”الاستفهام“. ومنه ما يكون سؤالا عما تعلمه ليقرّك به ، فيسمى ”تقريرا“. ومنه ما يكون ظاهره الاستفهام ومعناه التوبيخ كقوله تعالى : ”أَلَمْ يَأْتِكُمْ رَسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا“ (١). ومن السؤال ما هو محذور ، ومنه ما هو مفوض . فالمحذور ما حظرت فيه على المحيب أن يحيب إلا ببعض السؤال ، كقولك : [١٧٧] ألما أكلت أم خبزا ؟ فقد حظرت عليه أن يحيبك إلا بأحدهما . والمفوض كقولك : ما أكلت ؟ فله أن يقول ما شاء من المأكولات ، لأنك فوضت الجواب إليه . وليس في صنوف القول وفنونه ما يقع فيه الصدق والكذب غير الخبر والجواب . إلا أن ”الصدق والكذب“ يستعملان في الخبر ، ويستعمل مكانهما في الجواب ”الخطأ والصواب“ والمعنى واحد وإن فرق اللفظ بينهما . وكذلك يستعمل في الاعتقاد في موضوع الصدق والكذب ”الحق والباطل“ والمعنى قريب من قريب .

و”الخبر“ منه جزم ، ومنه مستثنى ، ومنه ذو شرط (٢) . فالجزم مثل زيد قائم ، وقد جزمت في خبرك على قيامه ، والمستثنى : قام القوم إلا زيدا فقد استثنيت زيدا ممن قام ، وذو الشرط : إذا قام زيد صرت إليك ، فإنما يجب مصيره إليه إذا قام زيد ، فهو معلق بشرط . وكل واحد من هذه المعاني إما أن يكون مثبتا وإما أن يكون منقيا ، فالمثبت : كقولك قام زيد ، والمنفى ما قام زيد . والمستثنى من المثبت منقيا ، والمنفى إذا استثنى منه مثبت . وليس يخلو الخبر المثبت أو المنفى من أن يكون واجبا أو ممتنعا (٣)

(١) سورة الأنعام .

(٢) ورد في هامش الأصل هنا : ”انظر كيف عذ الجملة الشرطية من باب الخبر مع أنها مما لا يحتمل الصدق والكذب“ .

(٣) في الأصل ”أو منقيا“ .

أو ممكنا . فالواجب مثل حر النار [وثرها] ^(١) لأنه واجب في طبيعتها .
والمتنع مثل حرارة الثلج ، لأن ذلك ممتنع في طبيعته . والممكن مثل قام
زيد لأنه قادر عليه وجائز أن يقع وألا يقع .

ثم لا يخلو " الخبر " بعد هذا كله من أن يكون عما مضى مثل قام زيد ،
أو عما يستقبل ^(٢) مثل يقوم زيد ، أو عما أنت فيه مثل قائم زيد . ولا يخلو
بعد ذلك من أن يكون عاما كلياً ، أو خاصاً جزئياً ، أو مهملًا . فكل
ما ظهر فيه حرف العموم فهو عام ، كقولك كل القوم جاءنا ، وجميع المال
أنفقت . ومنه قول الله عز وجل : " كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ " ^(٣) فهذا
لا يجوز أن يراد به الخصوص لظهور حرف العموم فيه . وكل ما ظهر فيه
حرف الخصوص فهو خاص ؛ كقولك : بعض المال قبضت ، ومن القوم
من جاءنا ، ومثله قول الله عز وجل : " وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ
مَغْرَمًا " ^(٤) ، فهذا لا يجوز أن يراد به العموم لظهور حرف الخصوص فيه .
وما لم يظهر فيه حرف العموم ولا حرف الخصوص فهو مهمل ؛ وقد يكون
عاما وقد يكون خاصا ؛ واعتباره أن تنظر : فإن كان في الأشياء الواجبة
أو الممتنعة فهو عام ، وإن كان لفظه واحدا كقول الله عز وجل : " بَلِ الْإِنْسَانُ
عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ " ^(٥) ، لأنه من الواجب أن يكون كل أحد على نفسه

(١) كذا في الأصل .

(٢) في هامش الأصل هنا : « في هذا الكلام دليل على أن الفعل المضارع أولى بالمستقبل
من الحال وهو خلاف مذهب الحذاق من النحاة »

(٣) سورة القصص .

(٤) سورة التوبة .

(٥) سورة القيامة .

بصيرة . وإن كان في الممكن فهو خاص كقول الله عز وجل : ”الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ“ (١) فهذا خاص ؛ وهذا لفظه على الجماعة لأثر القول ممن قال والجمع ممن جمع من الأشياء الممكنة ، وجاز أن يقع منهم وألا يقع . فهذا أصل يعمل به (٢) في الخاص والعام والمهمل . ومن البين للعقل أن الأخبار المثبتة الجازمة في الأمر الواجب ، ماضية ، ومستقبلها ، وما أنت فيه منها ، وعامها ، وخاصها ، ومهمليها ، صدق أجمع ، وأن منقيات ذلك كله كذب ، وأن مثبتات هذه الأخبار في الأحوال التي قدمنا ذكرها إذا كانت في المتنوع فهي كذب ومنقيات صدق ، وأن جميع هذه الأخبار في هذه الأحوال إذا جاءت في الأمر الممكن قد يكون صدقاً وقد يكون كذباً . وقد دللت على جمل ما يعرف به الصدق في ذلك من الكذب ولم نستقصها لسلا يطول الكتاب بها وهي في كتب المنطقيين مشروحة . فمن أراد عامها فليطلبها هنالك إن شاء الله .

واعلم أن من الأخبار أخباراً تقع بها الفائدة ولا يحصل منها قياس يوجب حكماً ، فمن ذلك الخبر المنفي ، بأنه يفيدنا انتفاء الشيء الذي ينفيه ولا يحصل منه (٣) قياس يوجب في نفوسنا حكماً ومثل ذلك قولنا : زيد غير قائم . فلم يحصل لنا من هذا القول غير العلم بانتفاء القيام عنه ، ثم لسنا ندرى على أي حال هو من قعود أو اضطجاع أو سجود . والخبر الذي بشرط لا يحصل في النفس منه حكم ، لأننا إذا قلنا : إذا قام زيد صرت إليك ،

[٢١٨]

(١) سورة آل عمران .

(٢) في الأصل ”فيه“

(٣) في الأصل . ”منها“ .

فليس يحصل في نفس المخاطب علم بمصير المخاطب إليه لأنه متعلق بقيام زيد الذي يجوز أن يقع وألا يقع .

والكذب إثبات شيء شيء يستحقه أو نفي شيء عن شيء لا يستحقه والخلف في القول إذا كان وعدا دون غيره ، وهو أن يعمل خلاف ما وعد فيقال أخلف فلان وعده ولا يقال كذب . وقد يخلف الرجل الوعد بفعل ما هو أشرف منه ، فلا يقال أخلف وعده ، وذلك كرجل وعد رجلا بثوب فأعطاه ألف دينار ، فقد تفضل عليه ، وإن كان قد عمل به خلاف ما وعده . فلا يسمى ذلك تخلفاً لو وعده . وبذا تعلق من أبطال الوعيد فزعموا أن إنجاز الوعد كرم ، وأن إخلاف الوعيد عفو وتفضل ، وأنشدوا :

وكنت إذا أوعدته أو وعدته لأخلف إيعادي وأنجز موعدى

وعليهم في ذلك كلام لأهل الحق ^(١) ليس هذا موضعه .

والنسخ في الحكم تبديله برفعه ووضع غيره مكانه . وأصله في اللغة وضع الشيء مكان غيره إذا كان يقوم مقامه . ومنه نسخ الكتاب ، لأنه وضع غيره موضعه وإقامته مقامه ، ومنه قوله عز وجل : ” مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ” ^(٢) . والنسخ لا يكون في الخبر ، لأن

(١) لعل المؤلف يشير بقوله : ” وبذا تعلق الخ ... ” إلى رأي أتباع أبي الحسن الأشعري المتكلم المتوفى عام ٣٢٤ في قولهم : ” إن الخلف في الوعد كرم فيجوز من الله تعالى ” وهو رأي مرجوح والمحققون على خلافه . ولعل المؤلف أراد ” بأهل الحق ” أصحاب هذا الرأي المقابل لرأي الأشعرية ، وهو الرأي السائد عند أهل السنة ، وينسب إلى أتباع أبي منصور المتأثرين بالمتوفى بعد الأشعري بقليل .

الخبر إذا تبدل عن حاله بطل ، وفي بطلان قول الصادق وجوب الكذب لا محالة . وليس يجوز للصادق أن يخبر بخبر فيكون ضده ونقيضه صدقاً ، إلا أن يكون خبره الأول معلقاً بشرط أو استثناء . كما وعد الله قوم موسى عليه السلام دخول الأرض المقدسة إن أطاعوه في دخولها ، فلما عصوه [١٩] حرمها عليهم فلم يدخلها أحد منهم . وكما وعد قوم يونس العذاب إن لم يتوبوا فلما تابوا كشف عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ، وإلى هذا المعنى تذهب الشيعة في البداء^(١) على قبح هذه اللفظة وبشاعة موقعها في الاستماع . فأما الخبر إذا لم يكن معلقاً بشرط ولا بشئ مما ذكرنا فلا يجوز أن يقع غيره موقعه فيكون صدقاً ، ولذلك قال الله عز وجل " مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ " (٢) .

والمعارضة في الكلام المقابلة بين الكلامين المتساويين في اللفظ . وأصله من عارضت السلعة بالسلعة في القيمة والمبايعة . وإنما تستعمل المعارضة في التقيّة ، وفي مخاطبة من خيف شره فيرضى بظاهر القول ويخلص في معناه من الكذب الصراح ، وذلك مثل قول بعضهم وقد سأله بعض أهل الدولة العباسية عن قوله في لبس السواد ، فقال : وهل النور إلا في السواد ! وأراد نور العين في سوادها فأرضى السائل ولم يكذب . وكقول

(١) البداء من صفات الشيعة المعروفين بالمختارية ، أتباع المختار بن أبي عبيد الناجم بالعراق زمن عبد الملك بن مروان . ويقول الشهرستاني : " إنما صار المختار إلى اختيار القول بالبداء لأنه كان يدعى علم ما يحدث من الأحوال ، أما يوحى إليه وإما برمالة من قبل الإمام ؟ فكان إذا وجد أصحابه يكون شيء واحد حدث جاذبة فإن وافق كونه قوله جعله دليلاً على صدق دعواه ، وإن لم يوافق قال قد بدأ الربكم " .

(٢) سورة ق .

شريح^(١) وقد خرج من عند عبد الملك^(٢) في الساعة التي مات فيها ،
وقد سئل عن حاله ، فقال : تركته يأمر وينهى ؛ فلما لحص عن ذلك
قال تركته يأمر بالوصية وينهى عن النوح . وقد قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : ” رأس العقل بعد الإيمان بالله عز وجل مداراة الناس “ .
ومن المعارضة قول مؤذن يوسف : ” أَيُّهَا الْعَبْرُ إِنَّمَا لَسَارِقُونَ^(٣) “ ، وهم
لم يسرقوا الصَّوَّاع^(٤) وإنما غنى سرقته إياه من أبيه . وإذا كان الكذب
إنما استقبح في العقل وخرج عن شريعة العدل من أجل أنه مخالف لحقيقة
الأشياء في أنفسها من غير نفع يقصد به — حتى قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : ” الكذب مُجَانِبٌ لِلْإِيمَانِ “ وقال الله عز وجل : ” وَلَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ “^(٥) ، وسمى الكاذبين ظُلَمَةً ولعنهم
فقال : ” وَيَقُولُ الشَّهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ
عَلَى الظَّالِمِينَ “^(٦) — كان الكذب إذا أريد به الصلاح العام والمنفعة
الحقيقية ، مطلقا^(٧) ، وقد روى : ” لا كذب إلا في ثلاثة مواطن : كذب
[م ١٩] في حرب ، وكذب في إصلاح بين الناس ، وكذب الرجل لامرأته ليرضيها به “
وقال أمير المؤمنين رضي الله عنه : ” الكذب كله إثم إلا ما نفع به

(١) هو شريح بن الحارث الكندي ، ولده عمر بن الخطاب قضاة الكوفة فأقام قاضيا
قراة نحة وسبعين عاما . وكان ذكيا فهما توفي عام ٥٨٧ هـ وقد جاوز المائة سنة .

(٢) هو عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي المشهور حكم من عام ٦٥ الى عام ٥٨٦ هـ .

(٣) سورة يوسف . والعبر القافلة .

(٤) الصَّوَّاع الجلام يشرب فيه .

(٥) سورة البقرة .

(٦) سورة هود .

(٧) أى جائزا ومباحا .

مسلماً أو دفعت به عن دين“ . وليس يدخل كذب الإنسان لنفع نفسه وضرر غيره في هذا المعنى ، لأن النفع الحقيقي هو الذي لا يقع به ضرر على وجه . وقد استعمل الناس أشياء ظاهرها كذب ولهم فيها معان تخرجها عنه ، كتكبيتهم الصبي بأبي فلان ، وهو لم يستحق أن يكون أباً ، وربما توفي قبل أن يولد له ، وربما ولد له فسَمي ولده بغير ما كُني به ، فهذا على ظاهره كذب ؛ ولذلك أبته رهبان النصارى وجماعة من أهل الأديان . والذي تقصد به العرب بذلك في الصغير التفاؤل له بالحياة وطول العمر والولد ، وتقصد به في الكبير وذوى الشرف التعظيم له عن التسمية باسمه . ولذلك ترى السلطان إذا شرف وزيراً من وزرائه أو ولياً من أوليائه كناه . وقد تجعل العرب للرجل الكنية والكنتين والثلاث على مقدار جلالته في النفوس . ومن كان له كُنى أمير المؤمنين (١) وحمزة (٢) رضوان الله عليهما ، ومن العرب عامر بن الطفيل (٣) وعمر بن معد يكرب (٤) وغيرهما ، وذلك معروف في أخبارهم . ومما استعملت فيه العرب التفاؤل تسميتهم أبناءهم أسدًا تفاؤلاً بالشجاعة والنجدة والبسالة ، وكلبًا تفاؤلاً بالحراسة والوفاء والمحافظة ، وأشباه ذلك مما سموا به . ومما قلبوه عن معناه وسموه بضد ما يستحقه على سبيل التفاؤل أيضاً “المفازة” وإنما هي مهلكة “والسليم” للفسوع ، وإنما هو السالف . ومما أرادوا به التعظيم له

(١) هو الإمام علي بن أبي طالب وكان يكنى بأبي حسن وأبي تراب .

(٢) هو عم النبي “صلم” وكان يكنى بأبي يعلى وأبي عمارة ، كُني بابننه .

(٣) من فرسان الجاهلية وشياطينها . كانت كنيته في الحرب “أبو عقيل” وفي السلم “أبو علي” .

(٤) من فرسان العرب في الجاهلية والإسلام . شهد وقعة اليرموك والقادسية ، وتوفي عام ٢١ هـ . وكان يكنى بأبي نور .

ولرؤسائهم أيضا اللقب كتلقبيهم بذي يزن^(١) ، ومكلم الذئب^(٢) ، [٢٠]
 والباقر^(٣) ، والصادق^(٤) ، والرضا^(٥) ، وأشباه ذلك . واللقب يجري
 على وجهين : أحدهما بالاشتقاق والتمثيل ، كتلقبيهم الغريص بالغريص^(٦)
 لتشبيهم إياه في بياضه بالإغريص وهو الطلع^(٧) ، والآخر بالاتفاق
 كتلقبيهم بالقلندر والدَّمَاح^(٨) . وربما لقبوا الإنسان بغير لسان العرب ،
 كتلقبيهم بالإخشيد^(٩) وبيرجيس^(١٠) . ومما جرى من الألقاب على جهة

(١) ملك من ملوك حبر ، ويزن اسم موضع باليمن أخيف إليه " ذو " مثل ذورعين

وذو جلد .

(٢) لقب جد قوم من نزاعة وكان جاء إلى النبي " صلعم " فحدثه أن الذئب أخذ من غنمه
 شاة فنبهه فلما عثبه بالسيف قال له : مالي ومالك تمنعني رزق الله ! قال قلت : يا عجا لذيبتكم !
 فقال : أعجب منه أن محمدا " صلعم " قد بعث بين ظهوركم وأتم لا تبعونه ، فبنوه يقتحرون بكم
 الذئب جدهم . وقد قال دعبيل بن علي بهجومه :

تتم علينا بأن الذئب كلمكم	فقد لعمرى أبوكم كلما الذئبا
فكيف لو كلم الأيتام المهور إذا	أفتيم الناس ما كولا ومشروبا
هذا السندي لا أصل ولا طرف	بكلم القليل تصعيدا وتصويا

(٣) بقر الشيء من باب منع شقه ووسعه ، الباقر لقب محمد بن علي بن الحسين ، لقب بذلك

لنبهه في العلم .

(٤) لقب الإمام جعفر بن محمد الباقر .

(٥) لقب علي بن موسى الكاظم وهو الإمام الثامن من أئمة الشيعة الاثني عشرية .

(٦) المراد بالغريص الأولى الشخص ، وبالناية اللقب .

(٧) الطلع ما يخرج من النخل كأنه نعلان مطبقان والحل بينهما منضود والطرف محدد .
 أو هو ما يبدو من ثمرته في أول ظهورها وهو المراد هنا .

(٨) لم نثر على هذين اللقبين في كتب اللغة التي بأيدينا وأغلب الظن أنهما مرتجلان .

(٩) لقب ملك قرغانية قديما .

(١٠) اسم المشتري بالفارسية وهو أحد كواب المجموعة الشمسية .

التعظيم تلقب الخلفاء أنفسهم ، ومن رفعوا منزلته من أوليائهم ، وذلك مشهور يعني عن تمثيله . ومن اللقب ما جرى على سبيل الذم ، كتلقبهم بذيئ العبد ، ورأس الكلب ^(١) ، وأنف الناقة قبل أن ^(٢) يمدح بنوه بذلك .

فهذه أقسام العبارة التي يتساوى أهل اللغات في العلم بها . فأما العرب فلهم استعمالات أخر من الاشتقاق ، والتشبيه ، والمجن ، والرمز ، والوحي والاستعارة ، والأمثال ، واللفظ ، والحذف ، والصرف ، والمبالغة ، والقطع ، والعطف ، والتقديم ، والتأخير ، والاختراع . ونحن نذكرها بوجيز من القول ليعرفها الناظر في هذا الكتاب ، ويحيط بأقسام معاني كل منها إن شاء الله .

فمن ذلك :

باب الاشتقاق

وهو ما اشتق لبعض الألفاظ من بعض ، كما يشتق من الزيادة اسم زيد وزباد ومزید ويزيد . وهو مأخوذ من شق الثوب أو الخشبة ، فيكون كل جزء منهما مناسباً لصاحبه في المادة والصورة .

قال : وللأسماء والأفعال في اللغة العربية أبنية يحتاج إلى معرفتها في الاشتقاق والتصريف . فمن ذلك الأسماء . وأقل ما جاء منها على حرفين

(١) رأس الكلب شاعر من بني تمير عاش في زمن الخليفة المأمون .

(٢) لقب رجل من بني نعيم وللقبه به حديث أورده صاحب الأغاني في تنبيهه . وكان بنوه يعضون من هذا اللقب حتى مدحهم الخطبة الشاعر فقال :

قوم هم الأنف والأذنان غيرهم
فصار بعد ذلك نحرهم ومدهم
ومن يسوى بأنف الناقة الذئب

مثل "من" و "ما" وما أشبه ذلك . وليس يجوز أن يكون اسم أقل من حرفين ؛ لأن المتكلم لا يجوز له أن يتبدى نطقه إلا بمتحرك ولا أن يقف إلا على ساكن ، فصار أقل الأسماء على حرفين لذلك . ولما أشبه ما كان [م٢٠] على هذا المثال حروف المعاني منع من التصرف ، وجعل مبنياً وأصل البناء على السكون إلا ما كان قبل آخره ساكن فيحرك لالتقاء الساكنين . فأما ما يبنى منه على الفتح فلخفة الفتحة نحو كيف ، وأين ، وأمام . وأما ما يبنى على الكسر فلا أن الساكن إذا حرك حرك إلى الكسر مثل أمس وحدام^(١) . وأما ما يبنى منه على الضم فما أعرب في بعض الأماكن ، مثل قبل وبعد فإنك إذا أضفتها أعربتتهما ، وإذا أفردتهما بنيتهما على الضم ، فرقاً بينهما وبين ما لا يعرب على حال . وشرح هذا في كتب اللغة وهو يُعْنِينَا عن الإطالة فيه . ثم تلي ذلك بالثلاثي ، وهو ما بُنِيَ على ثلاثة أحرف وله عشرة أمثلة : فَعَلَ مثل رَجُلٌ ، وفَعَلَ مثل جَمَلٌ ، وفَعِلَ مثل كَتَفٌ ، وفُفِعَ مثل بَرْدٌ ، وفُفِعَ مثل كَبَشٌ ، وفُفِعَ مثل عِطْرٌ ، وفُفِعَ مثل عَنَقٌ ، و [فَعَلَ مثل عَنَب] ^(٢) ، وفُفِعَ مثل صُرْدٌ ، وفُفِعَ مثل إِبِلٌ . ثم تلي ذلك بالرباعي ، وهو على خمسة أبنية : فُعِّلَ مثل جُلُجُلٌ ^(٣) ، وفُعِّلَ مثل جَعْفَرٌ ، وفُعِّلَ مثل سَمِسَمٌ ، وفُعِّلَ مثل دِرْهَمٌ ، وفُعِّلَ مثل قِطْرٌ ^(٤) . ثم تلي بالخماسي وله أربعة أمثلة : فُعِّلَ مثل سَفَرَجَلٌ ، وفُعِّلَ مثل جِرْدَحَلٌ ^(٥) ، وفُعِّلَ مثل

(١) اسم امرأة .

(٢) وفي الأصل "وفُعِّلَ مثل عَصْدٌ" وهو سهو من المؤلف لأن هذا البناء تقدم في قوله

"فُعِّلَ مثل رَجُلٌ" .

(٣) الجرمن الصغير .

(٤) وطاء الكتب .

(٥) الوادى والضخم من الابل .

بَحْمَرِش (١) ، وَقَعْلٌ مِثْلُ خُرْعِيل (٢) وَسَائِرُ الْأَسْمَاءِ الَّتِي تَتَجَاوَزُ خَمْسَةَ أَحْرَفٍ فَإِنَّمَا تَلْحَقُهَا زِيَادَاتٌ لَيْسَتْ مِنْ نَفْسِ بِنَاءِ الْأَسْمَاءِ ، مِثْلُ عَنَكَبُوتٍ وَأَشْبَاهِهِ . وَالْحُرُوفُ الَّتِي تَسْمَى حُرُوفُ الزَّوَائِدِ عَشْرَةٌ وَهِيَ : الْهَمْزَةُ ، وَاللَّامُ ، وَالْيَاءُ ، وَالْوَاوُ ، وَالْمِيمُ ، وَالنَّاءُ ، وَالنُّونُ ، وَالسِّينُ ، وَالْأَلِفُ ، وَالْهَاءُ (٣) .

وليس يأتى فى الأفعال السالمة شىء أقل من ثلاثة أحرف ولا أكثر من أربعة أحرف إلا ما لحقته الزيادة . وللثلاثى ثلاثة أبنية . وهى فعل مثل [٢١] ضَرَبَ ، وَقَعْلٌ مِثْلُ كَرُمَ ، وَفَعِلٌ مِثْلُ عَلِمَ . فَأَمَّا فُعِلَ لِمَا لَمْ يَسْمَ فاعله كضرب فليس بأصل وهو يدخل فى كل بناء . والرابعى السالم له بناء واحد وهو فَعْلَلٌ مِثْلُ دَحْرَجَ . وإذا لحقته الزوائد صارت خمسة عشر بناءً . فمن الأبنية التى تلحقها الزوائد تسعة أبنية فى أولها الهمزة وهى ألف الهمزة التى هى ألف الوصل ، وهى افعل نحو افتقر ، واستفعل نحو استخرج ، وانفعل نحو انطلق ، وافعلل نحو اخرجم (٤) ، وأفعل نحو احمر ، وأفعال نحو احمز (٥) ، وأفعول نحو احرط (٦) ، وأفعول نحو اغدودن (٧) ، وأفعلل نحو افشعر ، وبناء واحد فى أوله ألف القطع نحو أخرج ، وخمسة

(١) المرأة العجوز .

(٢) الباطل .

(٣) وهى التى يجمعها قولك : ساقوننا .

(٤) أراد الأمر ثم رجع عنه .

(٥) اخرج شيئاً فشيئاً .

(٦) أسرع فى السير .

(٧) المغدودن من الشجر الناعم المنقى ومن الناس الشاب الناعم .

لا ألف في أولها وهي : فاعَل مثل قاتَل ، وتفاعَل مثل تعاقَد ، وفعل مثل كسر ، وتفعَل مثل تكسر . وتفعَل مثل تخرج . ولكل زيادة من هذه الزيادات معنى تحدّثه في الفعل إذا دخلته ، وذلك مثل قولنا : ”خرج زيد“ فهذا بلا زيادة يدلنا على خروج زيد بإرادته . وإذا قلنا : ”أخرج عمرا زيد“ فزدنا ألف القطع كان المخرج لعمرو غيره . وكقولنا : ”قال زيد خيراً“ ، فإذا بيننا من ذلك فاعَل قلنا : ”قاوَل زيد عمراً“ ، فصار الفعل من اثنين ؛ فعلٌ كل واحد منهما بصاحبه كفعل صاحبه به وكقولنا ”كسر زيد القدح“ فيبدل على وقوع الكسر به ؛ فإذا قلت : ”كسر زيد القدح“ دلت على تردد الفعل وتكراره . ونقول : ”اعتل زيد“ فيبدل على علته ، فإذا قلت : ”تعال (١) زيد“ دلت بذلك على أنه أظهر علة وليس بعليل . وكذلك كل مثال من هذه الأمثلة يفيد معنى ليس في الآخر فإذا أردت أن تستق من الانطلاق اسماً للفاعل قلت : ”منطلق“ . وإن أردت أن تستق منه اسماً للفعول قلت ”منطلق به“ . وإن أردت أن تستق منه فعلاً ماضياً قلت : ”انطلق“ . وإن أردت أن تستق فعلاً مستقبلاً قلت : ”ينطلق“ . وإن أردت أن تأمر منه قلت : [٢١١م] ”انطلق“ . وإذا نهيت عنه قلت : ”لا تنطلق“ . فهذا وجه الاشتقاق في الأسماء والأفعال . فأما ”الأمر“ فكل فعل كان يأتي مستقبلاً متحركاً فإنك تسقط علامة الاستقبال منه وتقرّ الباقي على بنائه ، فيكون أمراً ، مثل دخرج يدخرج ، الأمر منه ”دخرج“ . وما كان ثانياً مستقبلاً ساكناً فليست تصل إلى النطق به مبتدئاً فلا بد من أن تدخل الهمزة لتوصل بها إلى النطق ، وتسمى ألفاً على المجاز لا على الحقيقة ، لأن الألف لا تكون

(١) في الأصل : ”تعال“ فك الإدغام

إلا ساكنة . فما كان من الرباعي فهي ألف قطع ، مثل أخرج يخرج ، فتكون في الأمر ”أخرج“ وهذه الألف مفتوحة على كل حال وما كان من ذلك في الثلاثي فهو ألف وصل ، وحركتها فيما كان ناكث مضموماً في المستقبل بالضم ، نحو قولك في يخرج ”أُخْرِجْ“ . وفيما كان ثالث مستقبله مفتوحاً أو مكسوراً بالكسر نحو قولك في يضرب ”اضْرِبْ“ وفي نفع ينفع ”انْفَعْ“ . وليس يجيء فعل يفعل إلا فيما كان موضع عين الفعل فيه أو لامه أحد حروف الحلق^(١) فأما ما ليس فيه في هذين الموضعين حرف من حروف الحلق فإنما يجيء على يفعل بالكسر ويفعل بالضم إلا أحرفاً جئن نوادر ، منها : أبى يأتى وركن يركن وقلى يقلى وغشى الليل يغشى إذا أظلم . والمعتل من الأفعال ما كان في موضع العين أو الفاء أو اللام حرف من حروف المد واللين ، وهي : الألف ، والياء ، والواو ولها أحكام في التصريف إن أردنا أن نستوعبها طال بها الكتاب لكنا نذكر مجملًا من ذلك تدلّ ذا القرينة على باقيها .

باب فيه ما اعتلت فاؤه

كل واو كانت في الفعل فاء ، وكان الماضي منه على فعل والمستقبل على يفعل ، فإنها تسقط في المستقبل ، نحو وعد يعد ، ووزن يزن ، فإن كان مستقبله على يفعل وماضيه على فعل صحّت ، نحو وضو يوضو . وإذا كان ماضيه على فعل ومستقبله على يفعل صحّت ، نحو ولع يولع ووجل يوجل .

(١) وهي سة : الحمة والخاء والحاء والعين والغين والماء .

باب فيه ما أعلت عينه

كل واو تكون عيناً للفعل الذى على فعل فإنها تجعل فى الماضى ألفاً لفتحة ما قبلها ، وتسكن فى المستقبل وتصح ، نحو قال يقول وغال يعول . وكذلك الياء إذا وقعت هذا الموقع ، نحو باع يبيع وكال يكيل . وتسقط الواو فى المفعول ، نحو مَقُول ومَكِيل ، والأصل مَكِيل ومَقُول . وكل واو وياء تحركتا بأى حركة كانت وقبلهما فتحة ، فإنهما يُقلبَان ألفاً ، نحو طَالَ ونَامَ . وإذا اجتمعت الياء والواو سبقت الأولى منهما بالسكون قلبت الواو وأدغمت فى الأولى ، فمما سبقت الياء الواو فيه قولهم سَيِّد وأصله سَيِّود . ومما سبقت فيه الواو الياء قولهم لَوَيْتَه لَيًّا وأصله لَوِيًّا . وكل واو أو ياء وقعت ^(١) بعد ألف زائدة جاز أن تبدل همزة ، نحو قائم وهائم . وكل واو انضمت وهى أول الفعل فهمزها جائز ، نحو أَقَمْتُ وَوُقِّتُ وأُجِّلْتُ ^(٢) ووُجِّلْتُ . وكل واو انكسرت فى أول الحرف فهمزها جائز نحو وشاح ^(٣) وإشاح ووَكاف وإكاف ^(٤) .

باب ما أعلت لامه

كل واو وياء فى آخر الفعل سكنتا وانضم ما قبل الواو وانكسر ما قبل الياء صحتا ، نحو نعدو ونمضي . وإن كانت فى الأسماء وانكسر ما قبلها أسكنت فى الرفع والخفض وفتحت فى النصب ، نحو قاض ورأيت قاضيا

(١) رقى الأصل : وقفا .

(٢) يلاحظ أن "أجلت" من الأجل لا من الوجل .

(٣) أديم عريض يرصع بالجوهر تشره المرأة بين عاتقها وكشحتها .

(٤) إكاف الحار ووكاف بردعه .

فإذا أضيف ذلك أو دخلته الألف واللام صحتا . وكل واو في آخر الفعل قبلها ضمة أو ياء قبلها كسرة ، فإنهما تسكان في الرفع ، وتفتحان في النصب ، وتحذفان في الجزم ، نحو زيد يغزو ولم يغز ولن يغزو . وإن كانت في آخره ألف ساكنة أقرت على سكونها في الرفع والنصب ، وحذفت في الجزم ، نحو يسعي ويخشي ، ولن يسعي ، ولم يسع .

باب فيه التشبيه

وأما التشبيه فهو من أشرف كلام العرب ، وفيه تكون الفطنة والبراعة عندهم . وكلما كان المشبه منهم في تشبيهه ألطف ، كان بالشعر أعرف ، وكلما كان بالمعنى أسبق ، كان بالحذق أليق .

والتشبيه ينقسم قسمين : تشبيه للأشياء في ظواهرها وألوانها وأقذارها كما شبهوا اللون بالخمرة ، والقدر بالغصن ، وكما شبه الله النساء في رقة ألوانهن بالياقوت ، وفي نقاء أنسارهن بالبيض . قال تعالى : **”كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ“** (١) . وكما قال الشاعر :

كَأَنَّ بَيْضُ نَعَامٍ فِي مَلَا حِفْهَا إِذَا اجْتَلَاهُنَّ قَبِطٌ لَيْلُهُ وَمِدُّ (٢)

وقال آخر :

أَيَا شَبَهَ لَيْلَى لَا تَرَا عِي فَا نَنِي لَكَ الْيَوْمَ مِنْ بَيْنِ الْوَحُوشِ صَدِيقُ
فَعَيْنَاكِ عَيْنَاهَا وَجِيدُكِ جِيدُهَا خَلَا أَنْ عَظُمَ السَّاقُ مِنْكَ دَقِيقُ

(١) سورة الصافات .

(٢) شبليد الحر .

وقال آخر :

وردتُ اعتسافًا والثَّرْيَا ^(١) كأنها على قِمة الرأس ابن ماء ^(٢) مُحَلَّقُ

ومنه تشبيه في المعاني ، كتشبيههم الشجاع بالأسد ، والجواد بالبحر ،
والحسن الوجه بالبدر ، وكما شبه الله أعمال الكافرين في تلاشيها مع ظنهم
أنها حاصلة لهم بالسراب الذي إذا دخله الظمان الذي قد وعد نفسه به
لم يجده شيئاً . وكما شبه من لا ينفع بالموعظة بالأصم الذي لا يسمع
ما يخاطب به ، وشبه من ضلّ عن طريق الهدى بالاعمى الذي لا يبصر
ما بين يديه ، ومن هذا النوع من التشبيه ^(٣) قول الشاعر :

فإنَّكَ كالليل الذي هو مُدرِكِي وإنِ خِلْتُ أن المُنْتَأَى عنكَ واسعٌ [٢٢]

وقول ^(٤) الآخر :

هو البحر من أي النواحي أَيْتَهُ فُلَجَّتْهُ المعروف والجود ساحله

وهذا كثير في القول وفي القرآن والشعر ، وما ذكرنا منه دليل على
ما تركنا إن شاء الله .

(١) مجموعة نجوم متقاربة ضيقة المحل على شكل المغود .

(٢) ابن ماء : كل ما لازم الماء من طير .

(٣) وفي الأصل : هذا النوع من التشبيه قال الشاعر .

(٤) وفي الأصل : وقال .

باب من اللحن

وأما اللحن فهو التعريض بالشئ من غير تصريح ، أو الكناية عنه بغيره ، كما قال الله عز وجل . ” وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيَاقِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ “ (١) . والعرب تفعل ذلك لوجوه ، وهي تستعمله في أوقات ومواطن . فمن ذلك ما استعملوه للتعظيم ، أو للتخفيف ، أو للاستحياء ، أو البُقيا ، أو للإنصاف ، أو للاحتراس . فأما ما يستعمل من التعريض للإعظام فهو أن يريد مرید تعريف من فوقه قبيحا إن فعله ، فيعرض له بذلك من فعل غيره ويقبح له ماظهر منه ، فيكون قد قبح له ما أثناه من غير أن يواجه به ، وفي ذلك يقول :

أَلَا رَبِّ مَنْ أَطْبَعْتُ فِي ذَمِّ غَيْرِهِ لَدَيْهِ عَلَى فِعْلِ أَنَاةٍ عَلَى عَمْدٍ
لِيَعْلَمَ عِنْدَ الْفِكَرِ فِي ذَلِكَ أَنَّمَا نَصِيحَتُهُ فِيمَا خَطَبْتُ بِهِ قَصْدِي

وأما التعريض للتخفيف فهو أن تكون لك إلى رجل حاجة فتجيئه مسلما ولا تذكر حاجتك ، فيكون ذلك اقتضاء له وتعرضا لمراذك منه ، وفي ذلك يقول :

أَرْوَحُ تَسْلِيمٍ عَلَيْكَ وَأَغْصِي وَحَسْبُكَ بِالتَّسْلِيمِ مِنِّي تَقَاضِيًا

وأما التعريض للاستحياء فكالكناية عن الحاجة بالنجوة والعذرة . والنجوة المكان المرتفع . والعذرات الألفية ، وبالفائض وهو الموضع الواسع — فكنى عن الحاجة بالمواضع التي تقصد لوضعها فيها . وكما كنى عن الجماع

بالسر، وعن الذَّكَرِ بِالْفَرْجِ، وإنما الفرج ما بين الرجلين . وكما تقول لمن [م٢٣]
كذب : ليس هذا كما تقول .

وأما التعريض للبقيا فمثل تعريض الله عز وجل بأوصاف المنافقين
وإمساكه عن تسميتهم إبقاء عليهم وتألفا لهم ؛ ومثل تعريض الشعراء
بالديار والمياه والجبال والأشجار بقيا على ألافهم وصيانة لأسرارهم وكتمانا
لذكرهم . ومنه قول الشاعر :

أيا أثلاث القاع من بطن توضح حنيني إلى أفيانكن طویل
ومنه قول الآخر :

ألا ياسيالات^(١) الرحائل باللوى عليكن من بين السیال سلام

وهذا باب تكثرفيه الشواهد من الشعر وغيره . وقد صرح بعض الشعراء
عن المراد به فقال :

أدور ولولا أن أرى أم جعفر بأبياتكم مادرتُ حيث أدور

وأما التعريض للإنصاف فكقول الله عز وجل : ”وَأَنَّا أَوْلَىٰ لَكُم لَعَلَّ
هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ“ (٢) . ومنه قول حسان بن ثابت في مناضلته
بعض من هجا رسول الله عليه السلام :

أتهجوه ولست له بكفٍ فشرُّكم لخيركم الفداء

(١) واحدها سيالة كحابة ما ظال من السر، واحدها سمرة شجرة صفار الورق قصار الشوك

جيدة الخشب والسر مما ينبت بجزيرة العرب .

(٢) سورة نبا .

وأما التعريض للاحتراس ، فهو ترك مواجهة السفهاء والأندال بما يكرهون وإن كانوا لذلك مستحقين ، خوفاً من بؤادهم وتسرعهم ، وإدخال ذلك عليهم بالتعريض والكلام اللين . وفي ذلك يقول الله عز وجل : **«وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ»** (١) وقال لموسى وهارون في فرعون : **«فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى»** (٢) .

باب فيه الرمز

وأما الرمز فهو ما أخفى من الكلام . وأصله الصوت الخفى الذى لا يكاد يفهم ، وهو الذى عناه الله عز وجل بقوله : **«قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً»** [٢٤] **قَالَ آيَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا»** (٣) . وإنما يستعمل المتكلم الرمز فى كلامه فيما يريد طيه عن كافة الناس والإفضاء به إلى بعضهم ، فيجعل للكلمة أو الحرف اسماً من أسماء الطير أو الوحش أو سائر الأجناس أو حرفاً من حروف المعجم ، ويطلع على ذلك الموضع من يريد لفهامه : فيكون ذلك قولاً مفهوماً بينهما مرزوماً عن غيرهما . وقد أتى فى كتب المتقدمين من الحكماء والمتفلسفين من الرموز شئ كثير ، وكان أشدهم استعمالاً للرمز أفلاطون . وفى القرآن من الرموز أشياء عظيمة القدر جليلة الخطر ، وقد تضمنت علم ما يكون فى هذا الدين من الملوك والممالك والفتن والجماعات ومدد كل صنف منها وانقضاءه ، ورمزت بحروف

(١) سورة الأنعام .

(٢) سورة طه .

(٣) سورة آل عمران .

المعجم وبغيرها من الأقسام كاللّين والزيّتون ، والفجر ، والعاديات ،
والعصر ، والشمس . واطلع على علمها الأئمة المستودعون علم القرآن .
ولذلك قال أمير المؤمنين رضي الله عنه : ” ما من مائة تخرج إلى يوم
القيامة إلا وأنا أعلم قائدها وناقصها وأين مستقرها من جنة أو نار “ .
وروى عن ابن عباس رضي الله عنه أنه سئل عن الم ، وح ، وطسم ،
وغير ذلك مما في القرآن من هذه الحروف فقال : ” ما أنزل الله كتاباً إلا
وفيه سر ، وهذه أسرار القرآن “ . وهي حروف الجمل ، ومنها كان على
يعلم حساب الفتن . فهذه الرموز هي أسرار آل محمد ، ومن استنبطها من
ذوى الأمر وقف عليها فعلم جليل ما أودعهم الله إياه من الحكمة . وقد
ذكرنا مما تأدى إلينا من تفسير ذلك في كتابنا الذي لقبناه ” بأسرار القرآن “
ما أغنى عن إعادته ههنا . فإن رغبت في النظر فيه فاطلبه تقف عليه
إن شاء الله (١) .

باب من الوحي

وأما الوحي فإنه الإبانة عما في النفس بغير المشافهة على أى معنى وقعت :
من إيماء ، ورسالة ، وإشارة ، ومكاتبة . ولذلك قال الله عز وجل : ” وَمَا
كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُفَّهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا “ (٢) .

[٢٢٤]

(١) يلاحظ الفرق الجوهرى بين الرمز الذى كان أفلاطون يلجأ إليه في عرض مبادئه
وآرائه والرمز الذى يقول المؤلف بوجوده في القرآن . والمؤلف هنا لاشك يجرى على نهج
الشعبة في الإعراف في تأويل الكتاب والسنة والتحرر من قيود اللغة والاصطلاح .

(٢) سورة الشورى .

وهو على وجوه كثيرة ، فمنه ” الإشارة “ كما قال الله عز وجل :
 ” أَخْرِجْ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْحَرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا “ (١) ومنه
 ” الوحي المسموع من الملك “ ، كقول الله عز وجل : ” إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ
 يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى “ (٢) . ومنه ” الوحي في المنام “ ، وهو الرؤيا
 الصحيحة ، كما قال الله تعالى : ” وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ “ (٣)
 ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” الرؤيا الصالحة جزء من
 ستة وأربعين جزءا من النبوة “ ، ومنه ” الإلهام “ كما قال الله عز وجل
 ” وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا “ (٤) أي ألهمها ، ومنه
 ” الكتاب “ ، يقال منه وحيت الكتاب إذا كتبه . قال الشاعر :

ما هيج الشوق من أطلال دارسة أضحت خلاء كوحى خطه الواحى

ويقال منه : وحيت أحي ، كما يقال : وفيت أفي . ومن الوحي
 ” الإشارة باليد “ ، و ” الغمز بالحاجب “ ، و ” الإيماض بالعين “ ،
 كما قال الشاعر :

ويوحى إليه بالتأط سلامها مخافة وإش حاضر ورقيب

(١) سورة مزيم .

(٢) سورة النجم .

(٣) سورة القصص .

(٤) سورة النحل .

وقال آخر :

أشارت بطرف العين خيفةً أهلها إشارةً محزونٍ ولم تتكلم
فأيقنتُ أن الطرف قد قال مرحباً وأهلاً وسهلاً بالحبيب المسلم

وقال آخر :

أشارت بأطراف كآب بناتها أنايبٌ در قمت^(١) بعقيق
وقالت : كلاك الله في كلِّ مشهد مكانك من قلبي مكانٌ شقيق

باب من الاستعارة

وأما الاستعارة فأنما احتيج إليها في كلام العرب لأن ألفاظهم أكثر [٢٥] من معانيهم . وليس هذا في لسان غير لسانهم ، فهم يعبرون عن المعنى الواحد بعبارات كثيرة ربما كانت مفردة له ، وربما كانت مشتركة بينه وبين غيره ، وربما استعاروا بعض ذلك في موضع بعض على التوسع والمجاز فيقولون إذا سأل الرجل الرجل شيئاً فيخل به عليه : ” لقد بخله فلان “ وهو لم يسأله ليخل وإنما سأله ليعطيه ، لكن البخل لما ظهر منه عند مسأله إياه ، جاز في توسعهم ومجاز قولهم أن ينسب ذلك إليه . ومنه قول الشاعر :

فالموت ما تلد الوالدة .

(١) أي جعل لها قعر بالفتح والكسر وهو ما التزق بأعقل الثرة ونحوها . والمراد أن هذه البيان اللطاف قد لونت أطرافها بصيغ آخر من حياء أو ما شاكلها .

والوالدة إنما تطلب الولد ليعيش لا ليموت ، لكن لما كان مصيره إلى الموت جاز أن يقال : للموت ولدتَه . ومثله في القرآن : ” وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا . وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْآءً “ (١) ؛ وذلك أنهم كانوا عند تلاوة القرآن قد حجبوا قلوبهم عن تفهمه وصدفوا بأسماعهم عن تدبره ، بخاز أن يقال على المحاز والاستعارة : إن الذي تلا ذلك عليهم جعلهم كذلك . والدليل على ما قلناه وأن حقيقة الأمر أنهم هم الفاعلون لذلك دون غيرهم ، قول الله عز وجل في موضع آخر : ” وَإِنِّي كُنْتُ مَدْعُوهُمْ لِيَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا سِتْجَارًا “ (٢) ومثل الأول قوله : ” وَلَا يُطِيعُ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا “ — الآية (٣) . لما غفل عن الذكر كان بمنزلة من يخل عند المسألة ، بخاز أن يقال للذي أذكره قد أغفله وقد أغفل قلبه ، كما جاز أن يقال للذي سأل ذلك فبخل عليه قد بخله . ومن الاستعارة ما قدمناه من انطاق الربع وكل ما لا ينطق إذا ظهر من حاله ما يشاكل النطق . ومما جاء من هذا النوع في القرآن قوله : ” يَوْمَ نَقُولُ لِلْهَمِّ هَلْ أَمْتَلَيْتَ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ “ (٤) . لما جاز أن تحتمل مزيداً من الكافرين [٢٥م]

(١) سورة الامراء . والوفر نقل السمع .

(٢) سورة نوح . واستعشوا ثيابهم تغطوا بها كراهة النظر اليه .

(٣) سورة الكهف .

(٤) سورة فرق .

حسن أن يقال : قالت هل من مزيد ؟ وكذلك قوله : ” ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ “ (١) ، وذلك لما كانتا عن إرادته من غير استصعاب عليه ولا عصيان له ، جاز أن يقال إنهما قالتا أتينا طائعين . وكذلك قوله : ” فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ “ (٢) ، لما كانت الإرادة من أسباب الفعل وكان وقوع الفعل يتلوها ، جاز لما قد كاد أن يقع وقرب وقوعه ، أن يقال أراد أن يقع ومثل ذلك قول الشاعر :

﴿ امْتَلَأَ الْخَوْضُ وَقَالَ قَطْنِي ﴾

أى لما لم تكن فيه سعة لغير ما قد وقع فيه من الماء جاز على الاستعارة أن يقال : قد قال حسبي ! وهذا شائع في اللغة كثير .

باب في الأمثال (٣)

فأما الحكماء والأدباء فلا (٤) يزالون يضربون الأمثال ، ويبينون للناس تصرف الأحوال ، بالنظائر والأشباه والأشكال ؛ ويرون هذا النوع من القول أنجح مطلباً ، وأقرب مذهباً ، ولذلك قال الله عز وجل : ” وَلَقَدْ

(١) سورة فصلت .

(٢) سورة الكهف .

(٣) جمع مثل ، وقد عرفوه بأنه قول سائر يشبه به حال الثاني بالأول . فواحد عرقوب مثلاً علم لكل ما لا يصح من المواعيد .

(٤) في الأصل : ” قلم “ .

ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ (١) . وقال : ” وَصَرَّبْنَا لَكُمْ مَسَاكِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَبَيَّنَّا لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَصَرَّبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ “ (٢) .

وإنما فعلت العلماء ذلك لأن الخبر في نفسه إذا كان ممكناً فهو يحتاج إلى ما يدل عليه وعلى صحته ، والمثل مقرون بالحجة . ألا ترى أن الله عز وجل لو قال لعباده : إني لا أشرك أحداً من خلائقي في ملكي ، لكان ذلك قولاً محتاجاً إلى أن يدل على العلة فيه ووجه الحكمة في استعماله ؛ فلما قال : ” ضَرَّبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ “ (٣) ، كانت الحجة من تعارفهم مقرونة بما أراد أن يخبرهم به أنه لا شريك له في ملكه من خلقه ، لأنهم عالمون [أنهم (٤)] لا يقرون أحداً من عبيدهم على أن يكون فيما ملكوه مثلهم ، بل يأنفون من ذلك ويدفعونه ، فإن الله عز وجل أولى بأن يتعالى عن ذلك . فلذلك جعلت القدماء أكثر آدابها وما دونته من علومها بالأمثال والقصص عن الأمم ونطقت بهوضه على ألسن الوحش والطيور (٥) . وإنما أرادوا بذلك أن يعملوا الأخبار مقرونة بذكر عواقبها ، والمقدمات مضمومة إلى نتائجها ، وتصريف القول

(١) سورة الإسراء .

(٢) سورة إبراهيم .

(٣) سورة الروم .

(٤) زيادة يقتضها السياق .

(٥) كافي تحاب كليلة ردمة مثلاً .

فيها ، حتى يتبين لسامعه ما آلت إليه أحوال أهلها عند لزومهم الآداب
أو تضييعهم إياها . ولهذا بعينه قص الله علينا أقاصيص من تقدمنا ممن عصاه
وآثر هواه نفس دينه ودنياه ؛ ومن اتبع رضاه بفعل الخير والحسن عقباه
وصير الجنة مثواه ومأواه ؛ وقال في مثل ذلك ” وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ
لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ “ (١) .

باب من اللغز

وأما اللغز فإنه من ألغز اليربوع ولغز إذا حفر لنفسه مستقيا ثم أخذ
يَمْنَةً وَيَسْرَةً يُعَمِّيْ بِذَلِكَ عَلَى طَالِبِهِ . وهو قول استعمال فيه اللفظ المتشابه
طلباً للمعاني والمحاكاة . والفائدة في ذلك في العلوم الدنيوية رياضة الفكر
في تصحيح المعاني ، وإخراجها على المناقضة والفساد إلى معنى الصواب
والحق ، وقدح الفطنة في ذلك واستنجاد الرأي في استخراج (٢) . وذلك
مثل قول الشاعر :

رُبَّ ثَوْرٍ رَأَيْتُ فِي مُحْرِمٍ وَنَهَارٍ فِي لَيْلٍ ظَلَمَاءِ

والثور ههنا : القطعة من الأقط (٣) ، والنهار : فرخ الجباري (٤) .
فإذا استخرج هذا صح المعنى ، وإذا أُحمِل على ظاهره كان محالاً . وكذلك
قال الشاعر :

فَأَصْبَحْتُ وَاللَّيْلُ لِي مَلْبَسٌ وَأَصْبَحَتِ الْأَرْضُ بَحْرًا طَمَى

(١) سورة القصص .

(٢) في الأصل : ” واستنجاد الرأي في استخراج “

(٣) الأقط شيء . مثل الجبن يتخذ من اللبن الخيض ، والقطعة منه أقط .

(٤) الجباري طائر طويل العنق رمادي اللون في منقاره بعض طول . قال الدميري :

” وأهل مصر يسمون الجباري ” الحرج “ وفرخ الجباري ولده .

[٢٦٦] فاصبحت : أشعلت المصباح ، ولو حُمِلَ على الصبح لتناهى القول وقسّد .
والفائدة في استعمال ذلك في الدين المعارضة التي ذكرناها وقلنا إن للإنسان
استعمالها عند التقية حتى يخرج بها الكلام عن الكذب باشتراك الاسم .
ومن هذه الأسماء المشتركة : المجنون الذي به الحبل ، والمجنون الذي قد
جَنَّهُ الليل ، والنبيذ الذي يشرب ، والنبيذ الصبي المنبوذ ، والعلّ المرتفع ،
والعلّ الفرس الشديد ، والجرح المصدر من الجراح ، والجرح الكسب ،
والطعن بالرمح ، والطعن في العرض ، والبطن ضد الظهر ، والبطن
من العرب ، والفخذ العضو ، والفخذ من القبيلة ، والبعل الزوج ، والبعل
النخل الذي يشرب ماء السماء ، واليد الجارحة ، واليد النعمة ، واليد
القدرة — وأشباه هذا كثير ، وقد جمعه أهل اللغة . ومن جوده وجمع
أكثره ابن دُرَيْد^(١) في كتاب "الملاحن" . فإن أردته فاطلبه فيه إن شاء الله .

باب من الحذف

وأما الحذف فإن العرب تستعمله الإيجاز والاختصار والاكتفاء بيسير
القول إذا كان المخاطب عالماً بمرادها فيه ، وذلك كقوله عز وجل :
”وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ“^(٢) وسكت
عن تمام الكلام لعلم المخاطب به ، فكان تقدير ذلك : إذا قيل لهم اتقوا
ما بين أيديكم وما خلفكم استكبروا وتمادوا وعتوا . وكذلك قوله : ”وَلَوْلَا
فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ“^(٣) حذف ما بعده لعلم

(١) هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد البصري الأزدى . ولد عام ٢٢٥ هـ وتوفي عام ٣٢١ هـ
وهو من أئمة اللغة والأدب وقد طبع كتاب الملاحن حديثاً بمصر .

(٢) سورة يس .

(٣) سورة النور .

المخاطب به ، فكأن تقديره : ولولا فضل الله عليكم ورحمته لعذبكم بما فعلتم
ومن ذلك قول الشاعر (١) :

أَجِدُّكَ لَوْ شِئْتُ (٢) أَتَانَا رَسُولُهُ سِوَاكَ ، وَلَكِنْ لَمْ نَجِدْ لَكَ مَدْفَعًا

أَرَادَ لِدَفْعِنَاهُ وَلَكِنْ لَمْ نَجِدْ لَكَ مَدْفَعًا ، فَخَذَفَ اكْتِفَاءً بَعْلَمَ الْمَخَاطَبِ بِمَا أَرَادَ . [٢٧]
ومثله قوله (٣) :

فَلَمَّا أَجْزَأَ سَاحَةَ الْحَيِّ وَانْتَحَى بِبَاطِنِ حَقْفِ ذِي قِفَافٍ (٤) عَقَقِلَ

هَذَا كَثِيرٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ ، وَإِذَا مَرَّ بِكَ عَرَفْتَهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

باب من الصرف

وأما الصرف فإنهم يصرفون القول من المخاطب إلى الغائب ، ومن
الواحد إلى الجماعة ، كقوله عز وجل : ” حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَحَرَيْنَ
بَيْنَهُمْ بَرْجٌ ظَبْيَةٌ “ (٥) . وكقول الشاعر :

وَتِلْكَ الَّتِي لَا وَصَلَ إِلَّا وَصَالُهَا وَلَا صَرْمٌ إِلَّا مَا صَرَمْتِ يَضِيرُ

وقال آخر :

يَا لَهْفَ نَفْسِي ! كَانَ جَدَّةَ خَالِهِ وَبَيَاضَ وَجْهِكَ لِلتُّرَابِ الْأَعْفَرِ (٦)

(١) بإزاء هذا اللفظ في الأصل : هو امرؤ القيس .

(٢) أى استخلفك بجدة لو شخص الخ .

(٣) بإزاء ذلك في الأصل : هو امرؤ القيس .

(٤) بهامش الأصل : ” ركام “ بدل ” قفاف “ وكتب فوقه : ” معاً “ يشير إلى أن فيه

الروايتين ، والعققل الكتيب .

(٥) سورة يونس .

(٦) الأعفر من الظباء الأبيض ليس بالشديد البياض .

باب من المبالغة

وأما المبالغة ، فمن شأن العرب أن تبالغ في الوصف والذم ، كما من شأنها أن تختصر وتوجز ، وذلك لتوسعها في الكلام واقتدارها عليه . ولكل من ذلك موضع يستعمل [فيه] ^(١) وسميت بك في مواضعه إذا صرنا إلى ذكره إن شاء الله .

والمبالغة تنقسم قسمين : أحدهما في اللفظ والآخر في المعنى . فأما المبالغة في اللفظ فيجري مجرى التأكيد ، كقولنا : ” رأيت زيدا نفسه “ ، و ” هذا هو الحق بعينه “ فتؤكد زيدا بالنفس ، والحق بالعين ، وإن كان قولك : ” هذا زيد “ و ” هذا هو الحق “ قد أغنياك ^(٢) عن ذكر النفس والعين ، ولكن ذلك مبالغة في البيان . ومنه قول الشاعر :

ألا حبذا هند وأرض بها هند وهند أتى من دونها النأي والبعدُ

وأما المبالغة في المعنى فأخراج القول على أبلغ غايات معانيه ، كقوله عز وجل : ” وَقَالَتِ الْيَهُودُ يُدْعِي اللَّهُ مَغْلُوبَةً “ ^(٣) ، وإنما قالوا : إنه قد قتر علينا ، فبالغ الله عز وجل في تقبيح قولهم فأخرجه على غايات الذم لهم . ومن المبالغة في المعنى قول الشاعر :

وفيهن ملهى لللطيف ومنظر أنيق لعين الناظر المتوسم

(١) زيادة يقتضها السياق .

(٢) يلاحظ أن ” أغنياك “ مستند إلى ” قولك “ وهو مفرد وثني باعتبار المقول .

(٣) سورة المائدة .

فلم يرض أن يكون فيهن ملهى وإن كان ذلك مدحاً لمن حتى قال
 “للطيف”، لأن اللطيف لا يلهو إلا بفائق، وقال: “ومنظر أنيق”
 وهذا في الوصف مجزئ، فلم يكتف به حتى قال: “لعين الناظر المتوسم”
 لأن الناظر إذا كرر نظره وتوسم تلبنت له العيوب عند توسمه وتكراره
 نظره، ولذلك قال الشاعر:

يزيدك وجهه حسناً إذا مازدته نظراً

ومن هذا المعنى قول الشاعر أيضاً:

فلما صرح الشر فأمسى وهو عريان

مشيناً مشية الليث غدا والليث غضبان

فلم يرض بتصریح الشر حتى عراه من كل ما يستره، ولم يرض بمشية^(١)
 الليث حتى جعله غضبان. وأشباه هذا كثير في القرآن.

باب في القطع والعطف

وهو واضح لمن أراد أن يعرفه، وهو في القرآن كثير. فمما طع الكلام
 فيه وأخذ في فن آخر من القول ثم عطف عليه بتمام القول الأول قوله:
 “حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ” — إلى آخر الآية^(٢)
 ومثله: “حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخنزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ
 وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ

(١) في الأصل: “بمشيته حتى جعله...”

(٢) سورة النساء.

عَلَى النَّصِيبِ وَأَنْ تُسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكَ فِسْقُ الْيَوْمِ الْبَاسِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تُحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ” (١) ، ثم قطع وأخذ في كلام آخر فقال : “الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا” ثم رجع إلى الكلام الأول فقال : “فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ” (٢) ومثل ذلك ما حكاه عن لقمان في وصيته لابنه إذ قال له : “يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ” (٣) . ثم قطع وأخذ في فن آخر فقال : “وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَاتَهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَى وَهٍ” إلى قوله : “فَأَنْبِئْكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ” . ثم رجع إلى تمام القول الأول في وصية لقمان فقال : “يَا بُنَيَّ إِنَّمَا إِنَّا بَكٌ مُتَقَالٌ حَبَّةٌ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ” إلى آخر الآيات .

(١) سورة المائدة . الميتة ما فارقه الروح من غير تذكية . أى من غير ذبح شرعى . والدم أى الدم المسفوح . وكان أهل الجاهلية يصبونه فى الأمعاء ويشربونه . وما أهل لغير الله به عند ذبحه . والمتخمة التى ماتت بالحق . والموقودة المضروبة بنحو خشب أو حجر حتى تموت . والمتربة التى تردت من علو أو فى بئر فانت . والنطيحة التى نظحتا أخرى فانت . وما أكل السبع أى ما أكل منه السبع فانت . إلا ما ذكيتم إلا ما أدركتم ذكاته وفيه حياة من ذلك والنصب واحد الأنصاب وهى الأصنام أو حجارة منصوبة حول البيت يذبحون عليها ويعبدون ذلك قربة . وأن تستقسموا بالأزلام أى وحرم عليكم الاستقسام بالأقداح . وذلك أنهم كانوا إذا قصدوا فعلا ضربوا ثلاثة أقداح مكتوب على أحدها “أمرنى ربى” وعلى الآخر “نهانى ربى” والثالث غفل . فإن خرج الأمر مضوا على ذلك . وإن خرج الناهى تجنبوه . وإن خرج الغفل أجالوا غائبا . فعنى الاستقسام طلب معرفة ما قسم بالأزلام . وقيل هو استقسام الجزر والأقداح على الأنصاب المعلقة . والأزلام جمع زلم يكمل .

(٢) سورة المائدة محصة : محاجة غير متجانف لاثم أى غير منحرف إليه بان يأكلها تلذذا أو متجاوزا حد الرخصة .

(٣) سورة لقمان .

باب فيه التقديم والتأخير

وأما التقديم والتأخير فكقوله : ”وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى“ (١) أراد ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاما . وكقوله : ”وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ“ (٢) أراد ما لا يملك لهم رزقا من السموات والأرض ولا يستطيعون شيئا . وفيما ذكرنا دليل على ما لم نذكره إن شاء الله .

باب من الاختراع

وأما الاختراع فهو ما اخترعت له العرب أسماء مما لم تكن تعرفه فما سموه باسم من عندهم ، كتسميتهم الباب في المساحة باباً (٣) والجرب جريبا (٤) والعشير عشيرا (٥) ومنه ما أعربته وكان أصل اسمه أعجمياً كالقسطاس المأخوذ من لسان الروم ، والشطرنج المأخوذة من لسان الفرس (٦) ، والسجل المأخوذ من لسان الفرس أيضاً . وكل من استخرج علماً أو استنبط شيئاً وأراد أن يضع له اسماً من عنده ، ويواطئ عليه من يخرج له إليه ، فله أن يفعل ذلك . ومن هذا الجنس اخترع التحويون اسم الحال

(١) سورة طه .

(٢) سورة النحل .

(٣) و (٤) و (٥) الباب في الحدود والحساب ونحوه الغاية . والجرب مقياس ومكيال فهو باعتبار مقياسه ٣٦٠ ذراعاً مربعة أو ٣٤٠٠ متر مربع كما قدره المستشرق هوارف في كتابه عن فارس القديمة . والعشير ١٠٠ من الجرب مطلقاً .

(٦) في الأصل بعد الفرس هنا . « أيضاً » وهي هنا باباء السياق .

والزمان ، والمصدر ، والتمييز ، والتبعية ^(١) واخترع الخليل ^(٢) العروض
فسمى بعض ذلك : الطويل ، وبعضه المديد ، وبعضه المخرج ، وبعضه
الرجز . وقد ذكر أرسطاطا ليس ذلك وذكر أنه مطلق لكل أحد احتاج
إلى تسمية شيء ليعرفه به أن يسميه بما شاء من الأسماء وهذا الباب مما
يشارك العرب وغيرهم فيه وليس مما ينفردون به .

باب تأليف العبارة

واعلم أن سائر العبارة في كلام العرب إما أن يكون منظوماً وإما أن
يكون منثوراً . والمنظوم هو الشعر ، والمنثور هو الكلام .

والشعر ينقسم أقساماً . منها : ” القصيد ” وهو أحسنها وأشبهها
بمذاهب الشعراء . ومنها : ” الرجز ” وهو أخفها . والرجز : الساقى الذى
يسقى الماء ، وكان الأصل فى الأراجيز أن يرتجز بها الساقى على دلوه إذا
مدّها ، ثم أخذت الشعراء فيه ، فالحق بالقصيد . ومنها ” المسطّ ” وهو
أن يأتى الشاعر بخمسة أبيات على قافية ، ثم يأتى بيت على غير تلك القافية ،
ثم يأتى بخمسة أبيات على قافية أخرى ، ثم يعود فيأتى بيت على قافية البيت
الأول ، وكذلك إلى آخر الشعر ، ومنه ” المزدوج ” وهو ما أتى على قافيتين إلى آخر
القصيدة . وأكثر ما يأتى وزنه على وزن الرجز . وفى الشعر والنثر جميعاً

(١) « لا » التى تكون للتبعية هى التى تعمل عمل « ليس » ولها عندهم وجوه فى نصب
المكرر والمفرد وتثنيين ما يتون وما لا يتون .

(٢) هو الخليل بن أحمد الفراهيدى واضع علم العروض ومحمد سيبويه بما ضمنه كتابه المشهور
فى النحو . مات بالبصرة عام ١٧٥ هـ .

تقع البلاغة والعي والإيجاز والإسهاب . إلا أن البلاغة والإيجاز إذا وقعا في الشعر والقول قضى للشاعر بالقَلَج^(١) والعي والإسهاب إذا وقعا في الشعر والقول كان الشاعر أعذر ، وكان العذر عن المتكلم أضيق . وذلك لأن [٢٩] الشعر محصور بالوزن ، محصور بالقافية ، فالكلام يضيق على صاحبه ، والنثر مطلق غير محصور ، فهو يتسع لقائله . فما تساوى القول والشعر فيه من هذا الفن فحكم للشاعر فيه بالفضل قول بعضهم في بعض كتب الفتوح : ” فكانت معاقلة تعقله ، وما يُحْرِزه يُبرِزه “ ، وقال الشاعر :

وإن يَبْنِ حَيْطَانًا عَلَيْهِ فَإِنَّمَا أَوْلُوكَ عُقَّالَاتُهُ لَا مَعَاقِلَهُ

وقيل لبعضهم وقد أطلال الوقوف في الشمس ، فقال : الظلُّ أريد .
قال الشاعر :

تقول سَلِمَى لَوْ أَقَمْتُ سِرْرَتَنَا ولم تَدْرِ أَنِّي لِلنُّقَامِ أَطُوفُ

وأشبه هذا كثير . فأما عذرهم للشاعر في التقصير ، واعتذارهم له الغيوب ، فقد جوزوا من قصر الممدود ، وحذف الحركة ، وتخفيف الهمزة وصرف ما لا ينصرف ، ما لم يحيزوه للتكلم . وأجازوا له أيضاً في الوزن استعمال الزحاف^(٢) والحرم^(٣) ، وفي القافية الإكفاء^(٤) ، والإقواء^(٥) ، والسَّناد^(٦) ، والإيطاء^(٧) ، والتضمين^(٨) ، وكل ذلك عيوب^(٩) .

(١) القلج والفوز .

(٢) والزحاف تغيير يلحق أسياب الأجزاء في حشو البيت . كأن تصير فاعلن فعلن .
والحرم حذف أول الوند المجموع من أول البيت فيصير فعولن عولن ” فعلن “ .

(٤) و (٥) و (٦) و (٧) و (٨) و (٩) الإكفاء . أن يؤتى في البيتين من القصيدة بروي متجانس في المخرج لافي اللفظ نحو فار من وفارص . والإقواء تحريك المجري بحركتين مختلفتين =

وعلى من استعمل البدية وقال الشعر على الهاجس^(١) والسجية أقل عينا منها على من استعمل الروية والتفكير وكرر النظر والتدبر . وقد ذكر الخليل وغيره من أوزان الشعر وقوافيه ما يغنى من نظره فيه ويعيننا عن تكلف شرح ذلك له ، إذ كنا نرى أن تكلف ما قد فرغ منه عيب لا فائدة فيه . إلا أنا نذكر جملة ذلك من باب استخراج المعنى تدعو الضرورة إلى ذكرها فيه إن شاء الله . [٢٩م]

وقد ذكر الناس البلاغة ووصفوها بأوصاف لم تشمل على حدها ، وذكر الجاحظ كثيراً مما وصفت به ، وكل وصف منها يقصر عن الإحاطة بحدها . وحدها عندنا أنه القول المحيط بالمعنى المقصود ، مع اختيار الكلام وحسن النظام ، وفصاحة اللسان . وإنما أضفنا إلى الإحاطة بالمعنى اختيار الكلام ، لأن العامي قد يحيط قوله بمعناه الذي يريده ، إلا أنه بكلام مردول من كلام أمثاله ، فلا يكون موصوفاً بالبلاغة . وزدنا فصاحة اللسان ، لأن الأعجمي واللحان قد يبالغان مرادهما بقولهما ، فلا يكونان موصوفين بالبلاغة . وزدنا حسن النظام لأنه قد يتكلم الفصيح بالكلام الحسن الآتى على المعنى ولا يحسن ترتيب ألفاظه وتصيير كل واحدة منها مع ما يشاء كلها فلا يقع ذلك موقعه . فما أتى في نهاية النظم قول أمير المؤمنين رضى الله عنه في بعض

= غير متباعدتين مثل الكسرة والضمة في قولك فوارس ومدارس . والساد عيب يلحق القافية لكن قبل رويها مثل يحمل ويحامل ؛ ولا توصه ولا تعصه .

والإيطاء إعادة اللفظة ذاتها بمعناها إلا أنهم أجازوا ذلك بعد سبعة أبيات . والتضمين تعلق القافية بالبيت الذي يليها وقوله " وكل ذلك عجيب " يشير إلى الإكفاء والإقواء الخ ؛ لا إلى الزحاف والخزم .

(١) الهاجس الخاطر .

خطبه : ” أين من سعى واجتهد ، واجمع وعدد ، وزحرف ونجد ، وبني وشيد ؟ “ فاتبع كل حرف بما هو من جنسه وما يحسن معه نظمه . ولم يقل : أين من سعى ونجد ، وزحرف وشيد ، وبني وعدد ؟ ولو قال ذلك لكان كلاما مفهوما ومن قائله مستقيما ، وكان مع ذلك فاسد النظم قبيح التأليف .

والشاعر من شعرٍ يشعرُ شعراً وهو شاعر ، والشعر المصدر : ونظيره الكافل ؛ يقال : كفل يكفل كفلاً وهو كافل ؛ ومنه سُمي ذو الكفل (١) ذا الكفل . وإنما سُمي شاعراً لأنه يشعر من معاني القول وإصابة الوصف بما لا يشعر به غيره . وإذا كان إنما يستحق اسم الشاعر بما ذكرنا فكل من كان خارجاً عن هذا الوصف فليس بشاعر وإن أتى بكلام موزون مقفى . وقد كره قوم قول الشعر واصطناعه . وإنما الشعر كلام موزون ؛ فما جاز في الكلام جاز فيه ، وما لم يجز في ذلك لم يجز فيه . وقد سمع [٢٠] رسول الله صلى الله عليه وسلم الشعر واستنشده وأثاب عليه وأنشد في مسجده وعلى منبره وقال لحسان : ” أُنْجِ قُرَيْشًا وَمَعَكَ رُوحُ الْقُدُسِ “ (٢) وقال : ” إِنْ مِنَ الشَّعْرِ لِحُكْمٌ “ . ومما احتج به من كرهه ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله : ” لَأَنْ يَمْتَلِىْ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَبِيحًا حَتَّى يَرِيَهُ خَيْرٌ “ (٣) له من أن يمتلى شعراً ، وما روى عنه في شأن امرئ القيس وقوله : ” ذَلِكَ رَجُلٌ مَذْكُورٌ فِي الدُّنْيَا مَنَسَى فِي الْآخِرَةِ ، يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ

(١) اسم نبي من الأنبياء .

(٢) روح القدس جبريل عليه السلام .

(٣) يقال : وري القبيح جوفه (وزان وعي) إذا أقصده .

ومعه لواء الشعراء حتى يوردهم النار". وهذا القول منه عليه السلام خاص في كفار الشعراء . والدليل على ذلك إجماع الأمة على أن حسان بن ثابت ، وكعب بن زهير وغيرهما من شعراء المؤمنين الذين كانوا يناضلون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأشعارهم ، ويجاهدون معه بالسنتهم وأيديهم ، خارجون عن جملة من يرد النار مع امرئ القيس . وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت بذلك [لأنه] ^(١) جاهد معه بيده ولسانه ، وأقعد كعب بن زهير على منبره وأنشد :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ^(٢)

حتى إذا بلغ إلى قوله :

إن الرسول لنور يستضاء به وصارم من سيوف الله مسلول

أوما إلى الناس باستماع قوله . وقد قلنا : إن كل مهمل من الأخبار إذا كان في الأمر الممكن فهو خاص ، وهذا في الممكن فهو خاص . ويريد ما قلناه وضوحاً قول الله عز وجل : "وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَأَهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَمِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ " ^(٣) . ثم بين مراده وأنه خاص في الكفار منهم ومن تعدي الحق وفسق ، فقال : "إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ " ^(٤) . وأما قوله : "لأن يمتلي

(١) زيادة يقتضها السياق .

(٢) متقيم غليل .

(٣) سورة الشعراء .

(٤) سورة الشعراء .

جوف أحدكم قبيحاً حتى يريه خيره من أن يمتلئ شعراً“ فإن المعقول من معنى الامتلاء أن يشغل المالى للشيء جميع أجزاله حتى لا يكون فيها فضل لغيره . وإن كان هذا هكذا فإنما أراد النبي صلى الله عليه وسلم بهذا القول من امتلاء جوفه من الشعر حتى لا يكون فيه موضع للذكر ولا لحفظ القرآن ولا لعلم الشرائع والأحكام والسنة في الحلال والحرام . وهذا ظاهر لمن تدبره . ويزيده وضوحاً ما روى عنه عليه السلام من أنه سمع قوماً يقولون فلان علامة ، فقال : ” وما هو علامة ؟ “ ف قيل : يعلم أيام العرب وأشعارها وأنسابها ووقائعها ، فقال : ” ذلك علم لا ينفع من علمه ولا يضر من جهله ، وإنما العلم آية محكمة ، أو فريضة عادلة ، أو سنة قائمة ، وما خلاهن فهو فضل “ ولم يزل الشعر ديوان العرب في الجاهلية لأنهم كانوا أميين ، ولم تكن الكتابة فيهم إلا لأهل الحيرة ومن تعلم منهم ، وإنما حُفِظَتْ مآثرها ، وأخبار أوائلها ، ومذكور أحسابها ووقائعها ، ومستحسن أفعالها ومكارمها — بالشعر الذي قيل فيها ونقلته الرواة عن شعرائها . ولولا الشعر ما عُرف جود حاتم طي^(١) ، وكعب بن مامة^(٢) وهريم بن سنان^(٣) ، وأولاد جفنة^(٤) لكن الذي قيل فيهم من الشعر أشاد بذكورهم ويتن عن فخرهم ، فقال الفرزدق في حاتم طي :

على ساعة لو أن في القوم حاتمً على جوده ضلّت بها نفس حاتم

(١) و (٢) و (٣) من أجاويد العرب وساداتهم في الجاهلية ، وبهم تصير الأمثال في الجود والإيثار .

(٤) هم ملوك العرب من القمامة . قامت لهم دولة بادية الشام في أواخر القرن الخامس الميلادي واضلعت قبيل الفتح الإسلامي للشام . وجفنة قبيلة من الأزد ينسبون إليها .

وقال زهير في هيرم :

مَنْ يَلْقَى يَوْمًا عَلَى غِلَاقِهِ هَرَمًا يَلْقَى السَّاحَةَ مِنْهُ وَالنَّدَى خُلُقًا
لَوْ نَالَ حَيًّا مِنَ الدُّنْيَا بِمَكْرَمَةٍ أَفْقَى السَّمَاءِ لَنَالَتْ كَفَّهُ الْأَفْقَا

وقال آخر :

[٣١] فَمَا كُتِبَ بِنِ مَامَةَ وَابْنِ سَعْدَى بِأَجُودِ مِنْكَ يَا عَمْرُ الْجَوَادَا (١)

إلى غير هذا مما قَيَّدَ على الأبطال ذكر شجاعتهم ، وشهر في الناس ذكركم
وعرفنا به غناءهم في مواقعهم ، وآثارهم في وقائعهم ، فقال عنترة :

وَلَقَدْ شَفَى نَفْسِي وَأَبْرَأْتُ سُقْمَهَا قَوْلَ الْفَوَارِسِ : وَيَكْ عَنْتَرُ أَقْدَمُ !

قال آخر :

وَفَكَّكُنَا غُلًّا أَمْرِي الْقَيْسُ عَنْهُ بَعْدَ مَا طَالَ حَبْسُهُ وَالْعَنَاءُ (٢)

وقال آخر :

أَلَيْسُوا بِالْأَلَى قَسَطُوا (٣) قَدِيمًا عَلَى النِّعْمَانِ وَابْتَدَرُوا السَّطَاعَا (٤)
وَهُمْ وَرَدُوا الْكَلَّابَ (٥) عَلَى تَمِيمٍ بِجَيْشٍ يَبْلَعُ النَّاسَ ابْتِلَاعَا

(١) البيت من شعر يزيد بن الحكم بن أبي العاص الثقفي ، قاله في عمر بن عبد الله
ابن معمر ، وكان شجاعا شجاعا مدحا . وكلاهما من متقدمي رجال الدولة الأموية .

(٢) هذا البيت من معلقة الخارث بن حنظل الشكري . وكانت عشان أُمِّت امرأ القيس
ابن المذرم ملك الحيرة يوم قُتِل المذمر . فأغارَت بكر على بعض بوادي الشام فقتلوا ملكا من
ملوك عشان واستغفروا امرأ القيس .

(٣) قسطوا جازوا وبالموا عن الحق . وهو من باب ضرب .

(٤) السطاع ككتاب أمول عمد الخباء .

(٥) الكلاب : يضم الكاف ما بين الكوفة والبصرة . حدثت عنده وقعة مشهورة
في الماخلة بين بكر وتغلب تعرف بيوم الكلاب . وكانت الغلبة فيها لتغلب على بكر .

وقد ذكر أرسطاطاليس (١) الشعر في "كتاب الحلال" بفعله حجة مقنعة إذا كان قديماً ، واحتج في كثير من كتب السياسة بقول أميرس (٢) شاعر اليونانيين . وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم أحق بالتقدمة وأولى بالاتباع ، وقد قال : "إن من الشعر لحكماً" . ورؤى عن بعض السلف : "أعربوا القرآن واتمسوا غريبه في الشعر" وقيل : "حسبك من الأدب أن تروى الشاهد والمثل" وقال معاوية لابنه : "يا بني ، أرو الشعر وتخلق به ، فلقد هممت يوم صفين بالفرار مراً ، فاردني عن ذلك إلا قول ابن الإطنابة (٣) :

أبت لي قمتي وأبى بلاني وأخذى الحمد بالثمن الربيع
واقدامي على المكروه نفسي وضربني هامة البطل المشيع (٤)
لأدفع عن مكارم صالحات وأحمى بعد عن عرض صحيح

وقال عبد الملك بن مروان لمؤدب ولده في وصيته إياه : "وعلمهم الشعر يحدوا ويحدوا" .

وللشعراء فنون من الشعر كثيرة تجمعها في الأصل أصناف أربعة . وهي : المديح ، والهجاء ، والحكمة ، واللهو . ثم يتفرع من كل صنف

(١) من أكبر فلاسفة اليونان ومؤدب الاسكندر المقدوني . عاش من سنة ٣٢٢

ال ٣٨٤ ق . م .

(٢) كان الرأي السائد عن أميرس أنه أعظم شعراء اليونان القدماء وصاحب المنظومتين الكبيرتين ، الإلياذة ، والأوديسيا ، وأنه عاش في القرن الثامن أو التاسع قبل الميلاد . ولكن البحث الحديث يذهب إلى أن المنظومتين المذكورتين من نظم عدة شعراء تناهوا على نظمها في زمن غير قصير .

(٣) هو عمرو بن الإطنابة الخزرجي ، كان شاعراً فارساً جاهلياً مشهوراً .

(٤) أي الجاد الخذر .

من ذلك فنون ، فيكون من المديح المرائي ، والافتخار ، والشكر ، واللفظ
في المسألة ، وغير ذلك مما أشبهه وقارب معناه . ويكون من الهجاء :
الذم ، والعتب ، والاستبطاء ، والتأنيب ، وما أشبه ذلك وجانبه .
ويكون من الحكمة : الأمثال ، والترهيد والمواعظ ، وما شاكل ذلك
وكان من نوعه . ويكون من اللهو : الغزل ، والطَّرد ^(١) ، وصفة الخمر ،
والمجون ، وما أشبه ذلك وقاربه . فما أجمعوا على استحسانه من المديح :

قوله :

على مكثريهم حقٌّ من يعتريهم وعند المقلين الساحةُ والبذلُ ^(٢)
وقال آخر :

يحدُّ بالنفس إذ ضنَّ البخيلُ بها والجودُ بالنفس أقصى غاية الجودِ
ومن المرائي قول الحسناء ^(٣) :

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلتُ نفسي
وما سيكون مثلي أحنى ولكن أعزَّى النفس عنه بالتأسي ^(٤)

(١) أي الصيد ، يقال طردت الكلاب الصيد طرداً نحتاً وراحتته .

(٢) البيت من قصيدة لغير مطلعها :

سلا القلب عن سلى وقد كاد لا يسفلو وأقفر من سلى التعانق فالتقل
وفي الأصل : " والبز " وهو محريف .

(٣) هي تماضر بنت عمرو بن الشريد أشهر شواعر العرب في الجاهلية والإسلام ، وهي
ترقى بهذا الشعر أخاها صفراً . وقد حضرت حرب القادسية في خلافة عمر وقتل فيها بنوها
الأربعة بعد أن حضهم على أن يكونوا أحنياً بنفوسهم شجعاناً .

(٤) يقال أساء تأسية فتأسى ، أي عزاه فتعزى .

وفي الشكر قوله :

لَأَشْكُرَنَّكَ مَعْرُوفًا هَمَمْتُ بِهِ إِنَّ اهْتِمَامَكَ بِالْمَعْرُوفِ مَعْرُوفٌ

وفي الافتخار قوله :

أَخَذْنَا بِآفَاقِ السَّمَاءِ عَلَيْكُمْ لَنَا قَمَرَاهَا وَالنَّجُومُ الطَّوَالِعُ

وفي الهجاء قوله :

فُغِضَ الطَّرْفُ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ فَلَا كَعْبًا بَلَعْتَ وَلَا كَلَابًا ^(١)

وفي الاستبطاء قوله :

كَلَانَا غَنَى عَنْ أَخِيهِ حَيَاتِهِ وَنَحْنُ إِذَا مُتْنَا أَشَدُّ تَغَانِيًا

وفي الحكمة قوله :

سَتُبْدِي لَكَ الْأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُرَوِّدْ

وفي الزهد قوله :

إِذَا امْتَحَنَ الدُّنْيَا لَيْبٌ تَكْشَفَتْ لَهُ عَنْ عَدْوِي ثِيَابُ صَدِيقٍ

وفي الوعظ قوله :

وَمَا النَّاسُ إِلَّا هَالِكٌ وَابْنُ هَالِكٍ وَذُو نَسَبٍ فِي الْهَالِكِينَ عَيْرِقُ

وفي اللهو والمبادرة قوله :

كَمْ مِنْ مَوْحَرٍ لَذَّةٍ قَدْ أَمَكَنْتَ لَعْدٍ وَلَيْسَ غَدُّ لَهُ بِمَوَاتٍ

(١) نمير وكعب وكلاب : أسماء قبائل ، والبيت لحرير من قصيدة يهجو بها الراعي الشاعر .

وفي الغزل قوله :

وما دَرَفْتُ عِيَاكَ إِلَّا لِتَضْرِبَنِي بِسَهْمِيكَ فِي أَعْشَارِ^(١) قَلْبٍ مَقْتُلٍ

وفي الطرد قوله :

فَعَادَى عِدَاءَ بَيْنِ نَوْرٍ وَنَعْجَةٍ دِرَاكًا وَلَمْ يَنْضَحْ بِمَاءٍ فَيُغْسَلِ^(٢)

وفي الخمر قوله :

لَا يَسْكُنُ اللَّيْلُ حَيْثُ حَلَّتْ فَدَهْرُ شُرَابِهَا نَهَارُ

ويحتاج الشاعر إلى تعلم العروض ليكون معياراً له على قوله وميزاناً على ظنه ، والنحو ليصلح به من لسانه ويقيم به إعرابه ، والنسب وأيام العرب والناس ليستعين بذلك على معرفة المناقب والمثالب ، فيذكرهما^(٣) فيمن قصده بمدح أو ذم ، وأن يروى الشعر ليعرف مسالك الشعراء ومذاهبهم وتصرفهم ، فيحتذى منهاجهم ، ويسلك سبيلهم . فإذا لم يجتمع له هذا فليس ينبغي أن يتعرض لقول الشعر . فإنه — ما أقام على الإمساك — معذور ، فتي تعرض لما يظهر فيه عيبه وخطؤه كان مذموماً . وقد قال الشاعر :

الشعرُ صعبٌ وطويلٌ سَلَمَةٌ إِذَا ارْتَقَى فِيهِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ
زَلَّتْ بِهِ عَلَى الْخَضِيضِ قَدَمُهُ يُرِيدُ أَنْ يُعْرِبَهُ فَيُعْجِمُهُ

(١) أى كسور وأجزاء .

(٢) عادى والى . بين نور ونعجة أى بين نور وحشى وبقرة وحشية . دراكا أى تباعا . وقوله لم ينضح بماء فيغسل أى لم يهريق فيكون بمنزلة الذى غسل بالماء . والمراد أن الفرس أدرك الطريدة قبل أن يهريق . وهذا البيت والذي قبله من معلقة امرئ القيس .

(٣) كذا في الأصل ، وظاهر أن فى تلبية الضمير توسعاً .

فإذا كملت هذه الأدوات ورأى من طبعه انقيادا (١) لقول الشعر ،
وسماحة به قاله وتكلفه ، وإلا لم يُكره عليه نفسه ، فالقليل مما تسمح به
النفس ، وبأى به الطبع ، خيرٌ من الكثير الذى يُحمل فيه عليها . وإن أعين
مع هذا بأن يكون فى شرف من قومه ومحل من أهل دهره ، كان قليلٌ
ما يأتى به من الصواب كثيرا ، وكثيره جليلا خطيرا ، ولذلك قال الشاعر :

وخيرُ الشعر أكرمُه رجالا وشرُّ الشعر ما قال العبد [م٣٢]

وقال على بن الجهم (٢) فى قريب من هذا المعنى :

وما أنا ممن سار بالشعر ذكره ولكن أشعارى يسيرُ بها ذكرى
ولا كلُّ من قاد الجياد يسوسها ولا كلُّ من أجرى يقال له مجرى

والذى يسمى به الشعرفائقا ، ويكون إذا اجتمع فيه مستحسنا رائقا ،
صحة المقابلة وحسن النظم ، وحزالة اللفظ ، واعتدال الوزن ، وإصابة
التشبيه ، وجودة التفصيل ، وقلة التكلف ، والمشاكلة فى المطابقة .
وأضداد هذا كله معيبة تمُجها الآذان ، وتخرج عن وصف البيان .
وأما صحة المقابلة فمثل قول الشاعر :

أميل مع الدمام (٣) على ابن عمى وأحمل للصدى على الشقيق
وأفرق بين معروفى ومنى (٤) وأجمع بين مالى والحقوق

(١) فى الأصل : "انقيادا لقول الشعر" .

(٢) من مشهورى شعراء العصر العباسى الأول مات سنة ٢٤٩ هـ .

(٣) الدمام كل حزمة تلزمك إذا ضيعتها المذمة .

(٤) المنّ الفخر والاعتداد بالإحسان . وفى القرآن : "يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالبن والأذى" .

فأحسن القسمة في المقابلة ، ومال مع ما ينبغي أن يُمال معه ، وحمل على
من يحسن الحمل عليه ، وفرق بين ما ينبغي أن يفرقه ، وجمع بين ما ينبغي
أن يجمعه . وأساء الآخر المقابلة حين يقول :

أموت إذا ما صدتني بوجهه ويفرح قلبي حين يرجع للوصل

يفعل ضد الموت فرح القلب ، وضد الصد بوجهه الوصل ، وهذه مقابلة
قبيحة ولو قال :

أموت إذا ما صدتني بوجهه وأحيا إذا ملَّ الصدود وأقبلا

يفعل جزاء الموت الحياة ، وجزاء الصد بالوجه الإقبال — لكان مصيباً .
وأما حسن النظام فكقوله :

مشاركة اللئيم بلا جواب أشد على اللئيم من الجواب

وكقوله :

يا أيها المتحلل غير شميمه إن التخلق يأتي دونه الخلق

[٣٢] فهذا نظم حسن جميل له رونق غير مُخجل ^(١) فأما قول الشاعر :

أُمَّ سَلَامٍ أَتَيْتُ عَاشِقًا يَعْلَمُ اللَّهُ يَقِينًا رَبَّهُ

أَنْكُمْ فِي عَيْنِهِ مِنْ عَيْشَةٍ فَأَعْلَمِيهِ يَا سُلَيْمَى حَسْبَهُ

(١) أي صادق لا ليس فيه ولا إشكال . يقال هذا الشيء لا يخلل على أحد أي لا يشكل .

فقيح النظم ، بادی العوار ، ظاهر الاضطراب ، مختلف غير مؤلف .
وأما جزالة اللفظ فكقوله :

وعلى علقك يا ابن عمِّ عدي رَصْدَانِ ضَوْءُ الصَّيْحِ وَالْإِظْلَامِ
فَإِذَا تَنَبَّهَ رُغَّتَهُ وَإِذَا عَقَا سَلَّتْ عَلَيْهِ سَيُوفُكَ الْأَحْلَامِ

وأما سخافة اللفظ وركا كنه ، فمثل قول الشاعر :

يَا عُبَّ سَيِّدَتِي أَمَا لَكَ دِينٌ حَتَّى مَنَى قَلْبِي لَدَيْكَ رَهِيْنُ
فَأَنَا الصَّبُورُ لِكُلِّ مَا حَمَلْتَنِي وَأَنَا الشَّقِيُّ الْبَائِسُ الْمُسْكِينُ

وأما اعتدال الوزن فكقوله :

إِنَّمَا الدَّلْفَاءُ هَمِّي قَلْبِدَعْنِي مِنْ يَلُومُ
أَحْسَنَ النَّاسِ جَمِيعَا حِينَ تَمْشِي أَوْ تَقُومُ
أَصْلُ الْحَبْلِ لَتَرْضَى وَهِيَ لِلْحَبْلِ صَرُومُ

فهذا شعر ليس فيه معنى فائق ، ولا مثل سابق ، ولا تنبيه مستحسن ،
ولا غزل مستطرف ، إلا أن اعتدال وزنه قد كساه جمالا ، وصير له
في القلوب حالا . فإذا جئت إلى قول امرئ القيس :

وَتَعْرِفُ فِيهِ مَنْ أَبَاهُ شِمَانِلًا وَمَنْ خَالَهُ وَمَنْ يَزِيدُ وَمَنْ حَجَّرُ
سَمَاحَةً ذَا وَبَرًّا وَوَفَاءَ ذَا وَنَائِلَ ذَا إِذَا صَحَا وَإِذَا سَكَّرُ

وجدته قد أتى من الوصف ما لم يأت به أحد . ومدح أربعة في بيت ،
 ورجع لواحد فضائل الأربعة في بيت آخر ، وجعل ما مدحه به سجيحة له
 في صحوه وفي سكره ، ففاق في هذه الأحوال كل شاعر . إلا أن اضطراب
 [٢٢٣] وزنه وكثرة الزخاف فيه قد هيناه ، وعن حد القبول قد أخرجاه .

وأما الإصابة في التشبيه فكقول الشاعر :

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المتأى عنك واسع

وكقول الشاعر :

كأن منار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليلٌ تهاوى كواكبها

ومما سلك شاعره سبيل التشبيه فأساء ولم يُحسن ، قوله :

خطاطيف حجن في حبال متينة تمتد بها أيدي إليك نوازع^(١)

وقول الآخر :

ألا إنما لي عصا خيزرانة إذا مسوها بالأكف تلين

وأما سهولة القول وقلة التكلف فكقول الآخر :

خير المذاهب في الحاجات أنجحها وأضيق الأمر أدناه من الفرج

(١) البيت من قصيدة ثابتة يغندر بها إلى التمر بن المنذر ملك الحيرة . والخطاطيف
 واحدا الخطاف وهو الحديد المموجة يختطف بها الشيء . وحجن جمع حجناء أى معوجة ونوازع
 أى متبادلة . يقول شاعر الدنيا على فكائي من ضيقها في بئر ، فإذا أردتني وأمرت بسوقك إليك
 فأنا أتمد اليك بالخطاطيف لأأخذ خيزرك .

فهذا لفظ سهل قريب قد جرى فيه صاحبه على سجيته وعادته ؛ فإذا
جئت إلى قول الآخر :

وما مثله في الناس إلا مُملِّكا أبو أمه حتى أبوه يقاربه

وجدته قد تكلف تكلفا غير خفي على سامعه ؛ فالقلوب له آية ، والآذان
عنه نايبة . وأما جودة التفصيل فكقوله :

بيضٌ مفارقنا ، تغلى مصراجلنا نأسو بأموالنا آثار أيدينا

وكقول الآخر :

بيضاء في دجج ، صفراء في نعج كأنها فضة قد مسها ذهب ^(١)

فأما المطابقة والمشاكلة فيها فكقول الشاعر :

نُعرِّض للظمان إذا التقينا وجوها لا تُعرِّض للسباب

وقول الآخر :

سموه أحمد فالإسلام بمحمد ^(٢) والدهر كاسم أبيه ممرعٌ خصب ^(٣)

ومما ينبغي للشاعر أن يلزمه فيما يقوله من الشعر ألا يخرج في وصف أحد [٢٤]
من يرغب إليه ، أو يهرب منه ، أو يهجو ، أو يمدحه ، أو يغالظه ،

(١) الدجج في العين شدة سوادها في شدة بياضها . والنعج حسن اللون .

(٢) في الأصل : "محمده" .

(٣) ممرع : مخصب .

أو يهازله ، عن المعنى الذى يليق به ويشاكله ، فلا يمدح الكاتب بالشجاعة ، ولا الفقيه بالكتابة ، ولا الأمير بغير حسن السياسة ، ولا يخاطب النساء بغير مخاطبتهن . ولكن يمدح كل أحد بصناعته ، وبما فيه من فضيلة ، وبهجوه برذيلته ومذموم خليفته ، ويغازل النساء بما يحسن من وصفهن ومداعبتهن والشكوى إليهن ، فإن فى مفارقتها هذه السبيل التى قد نهجناها وسلوكه غير هذه الطريق ، وصعاً للأشياء فى غير مواضعها ، وإذا وضعت الأشياء فى غير مواضعها قصرت عن بلوغ أقصى مواقعها . ولذلك قال الأمين لأبى نواس : إذا قلت فى الحصب (١) :

إذا لم تَرُ أرضَ الحصبِ رَكابنا فأى قَتَى يعد الحصبِ تزور

فإذا أبيت لى ؟ قال : قولى يا أمير المؤمنين :

إذا نحنُ أَشِينَا عَلَيْكَ بِصَالِح فأنتَ كما تُثْنِى وفوق الذى تُثْنِى

وإن جرتِ الألفاظُ يوماً بمدح لغيرك إنساناً فأنت الذى نعى

وقد لعمري أحسن الأمين التبكيت (٢) لأبى نواس ووضعه موضعه ، وأحسن أبو نواس الاعتذار وتلا فى ما قرط منه . ومما وضع فى غير موضعه نعيب وإن كان فى معناه جيداً قوله (٣) :

فقلت لها ياعزَّ كلِّ مصيبةٍ إذا وُطِّئَتْ يوماً لها النفسُ ذلت

(١) هو الحصب بن عبد الحميد . وهو ممن ولأهم الرشيد خراج مصر .

(٢) فى الأصل : التكبى .

(٣) فى الأصل : " قوله يوماً " بزيادة كلمة " يوماً " .

فقالوا: لو قال هذا في الزهد كان من أشعر الناس. وكذلك قول الآخر:
 يمشين رهواً^(١) فلا الأعجاز حاذلة ولا الصدور على الأعجاز تتكل
 فقالوا: لو وُصف بهذا النساء لكان من أشعر الوصف وأغزل الشعر.
 ومما ينبغي له أيضاً أن يجتهد فيه أن يكون معنى كل بيت ولفظه
 متساويين حتى يتم المعنى بتمام اللفظ، كما قال الشاعر:

ولا يواتيك فيما ناب من خلقٍ إلا أخو ثقةٍ فانظر بمن تشق

فهذا بيت قد تم معناه بتمام لفظه من غير حشو ولا تضمين. وكذلك قوله:
 وقف الهوى بي حيث أنتِ فليس لي متأخرٌ عنه ولا متقدمٌ
 أجد الملامة في هوائك لذينة حباً لذكرك فليتمنى اليوم

فأما إذا تم المعنى قبل تمام البيت، فالشاعر حينئذ محتاج إلى حشو
 البيت بما لا فائدة فيه من اللفظ، وذلك [مثل (٢)] قول الشاعر:

وقد أروح إلى الحانوت يتبعني شاوٍ مشلٌ شلؤلٌ شلُسلٌ شؤلٌ^(٣)

(١) رهو: السير السهل.

(٢) زيادة يقتضها السياق.

(٣) كل هذه الألفاظ بمعنى واحد والمراد منها الرجل الخفيف في الحاجة، الحسن الصعبة،
 الطبيب النفس.

وإن تم البيت قبل أن يتم معناه ، احتاج إلى أن يضمّن البيت الثانى تمام المعنى ، كقول الشاعر :

وجناح [مخصوص^(١)] تخيف ريشه ريب الزمان تخيف المقرض

فهذا لا يقوم بنفسه ولا يبين عن معنى ما أريد به حتى يأتى بمعناه فى البيت الثانى ، وهو :

فنعشته ووصلت ريش جناحه وجبرته يا جابر المنهاض

وجميعهما معيان ، فينبغى أن تجنبهما ما وجدت السبيل إلى ذلك . واعلم أن الشاعر إذا أتى بالمعنى الذى يريد أو المعنيين فى بيت واحد ، كان فى ذلك أشعر منه إذا أتى بذلك فى بيتين . وكذلك إذا أتى شاعران بذلك ، فالذى يجمع المعنيين فى بيت أشعر من الذى يجمعهما فى بيتين . ولذلك فُضِّل قول امرئ القيس :

كان قلوب الطير رطباً ويا يساً لدى وكرها العناب والحشف البالى

على قوله :

كان عيون الوحش حول خبائنا وأرجلنا الجزع^(٢) الذى لم يشب

(١) مخصوص : منساقط الشعر ، ومكان هذه الكلمة فى الأصل بياض . غير أن بالهامش تكملة هذا النفس لا يظهر منه إلا "صوص" وألحق كلمة تناسب المقام وتنتهى بهذين الحرفين هى "مخصوص" .

(٢) قيل هو الحزن البىاض وهو الذى فيه بياض وسواد وتشبه به الأعين .

لأنه جمع في البيت الأول وصف شيئين لشئيين ، وإنما وصف في هذا شيئاً بشيء. وللشاعر أن يقتصد في الوصف أو التشبيه أو المدح أو الذم ، وله أن يبالغ ، وله أن يسرف حتى يناسب قوله المحال ويضاهيه ، ولا يستحسن السرف والكذب والإحالة في شيء من فنون القول إلا في الشعر. وقد ذكر أرسطاطاليس الشعر فوصفه بأن الكذب فيه أكثر من الصدق ، وذكر أن ذلك جائز في الصناعة الشعرية . فما اقتصد الشاعر فيه قوله :

يُخْرِكُ مِنْ شَهْدِ الْوَقِيعَةِ أَنِّي أَغْشَى الْوَغَى وَأَعْفُ عِنْدَ الْمَغْنَمِ

ومما بالغ فيه قوله :

يَطْعَمُهُمْ مَا ارْتَمَوْا حَتَّى إِذَا اطَّعَنُوا ضَارَبَ حَتَّى إِذَا مَا ضَارَبُوا اعْتَنَقَا^(١)

بفعل له عليهم في كل حال من أحوال البسالة والشجاعة فضلاً ومبالغة. ومما أسرف فيه الشاعر حتى أخرجه إلى الكذب والمحال ، وهو مع ذلك مستحسن ، قوله :

تَغَطَّيْتُ مِنْ دَهْرِي^(٢) بِظَلِّ جَنَاحِهِ فَعِنِّي تَرَى دَهْرِي وَلَيْسَ يَرَانِي
فَلَوْ تَسْأَلُ الْأَيَّامُ عَنِّي مَا دَرْتُ . وَأَيْنَ مَكَانِي ، مَا عَرَفَنَ مَكَانِي

ومما يزيد في حسن الشعر ويمكن له حلاوة في الصدر ، حسن الإنشاء وحلاوة النعمة ، وأن يكون قد عمَّد إلى معاني شعره بفعلها فيما يشاء كلها من

(١) بصفه بأنه يزيد عليهم في كل حال من أحوال الحرب . والبيت من قصيدة لزهير يمدح بها هزم بن سنان .

(٢) كذا في ديوان أبي نواس . وفي الأصل : “ تَغَطَّيْتُ مِنْ يَحْيَى ” .

اللفظ، فلا يكسو المعاني الجدية ألفاظاً هزلية فيُسَخِّفُهَا ، ولا يكسو المعاني
الهزلية ألفاظاً جدية فيستوخمها صاحبها ، ولكن يعطى كل شيء من ذلك
حقه ويضعه موضعه. ويتمثل في ذلك بما وصف به الشاعر بعض الخُذَّاقِ
بترتيب الكلام فقال :

أخوالِ الخَدِّ ، إن جادَدْتَ أرضاكِ جِدُّهُ وذو باطِلٍ ، إن شئتَ أهلكِ باطِلُهُ

[م ٣٥] وألا يجعل شعره كله جِدًّا فيُسْتَغْلَى ، إذ كانت النفوس ربما ملَّت الحق
واستغفلته، واحتاجت إلى أن تَمْتَرِيَ ^(١) نشاطها وتبقى حِمَامَهَا ^(٢) بُشْيًى ،
وألا يجعل شعره كله هَزْلاً فيكسده عند ذوى العقول ، ولكن يخالط جِدًّا
بَهْزَلٍ ، ويسعمل كلاً في موضعه وعند أهله ، ومن يَنفُقُ عنده . ومن
عَرَفَ هذا المعنى في الشعر وأخذ فيه، وأرْبَى ^(٣) فيما أتى منه على من تَقَدَّمَهُ
أبو نُوَاسٍ فإنه يقول ^(٤) :

أنت امرؤٌ أوليتني نِعَمًا أو هت قُوى شكري فقد ضِعُفا
لا تُحْدِثْني إلى غارِفَةٍ حتى أقوم بشكر ما سلفا

(١) تَمْتَرِيَ : تستخرج .

(٢) أى راحتها .

(٣) فى الأصل : "أربى" .

(٤) وفى الأصل "قانه أن يقول" . وبإزاء هذا الكلام كلمة بهامش الأصل غير واضحة .

ويقول أيضًا :

تَنَازَعَ الْأَحْدَانِ الشَّيْبَةَ بَيْنَهُمَا خَلَقًا وَخُلُقًا كَمَا قَدْ الشَّرَاكَانُ (١)
شِبْهَانٍ لَا فَرْقَ فِي الْمَقُولِ بَيْنَهُمَا مَعْنَاهُمَا وَاحِدٌ وَالْعِدَّةُ اثْنَانِ
حَتَّى يَقُولَ أَيْضًا :

عُتِقْتُ فِي الدِّنِّ حَتَّى هِيَ فِي رِقَّةٍ دِينِي
وَيَقُولُ :

فِيَا مَنْ صَبِغَ مِنْ حَسَنِ وَطِيبٍ وَجَلَّ عَنْ الْمَشَاكِلِ وَالضَّرِيبِ (٢)
أَصْبَنِي مِنْكَ يَا أَمَلِي بِذَنْبٍ تَلْبِيهِ عَلَى الذَّنُوبِ بِهِ ذُنُوبِي (٣)
فَاجْتَبَاهُ الْعُلَمَاءُ لِمَا جَدَّ فِيهِ . وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو (٤) : أَوْ غَيْرِهِ : لَوْلَا مَا أَخَذَ فِيهِ
أَبُو نُوَّاسٍ مِنَ الْإِرْفَاقِ (٥) لَاحْتَجَجْنَا بِشَعْرِهِ . وَاجْتَبَاهُ الْخُلَعَاءُ وَأَهْلُ الْهَزْلِ
لِحَبُونِهِ وَلِمَا هَزَلَ فِيهِ . فَأَمَّا وَضْعُ الْمَعَانِي فِي مَوَاضِعِهَا الَّتِي تَلِيْقُ بِهَا ، فَكَقُولِ
أَمْرِئِ الْقَيْسِ فِي عَنُقْوَانِ أَمْرِهِ وَجَدَّةِ مَلِكِهِ :

فَلَوْ أَنَّ مَا أَسْعَى لِأَدْنَى مَعِيشَةٍ كَفَانِي ، وَلَمْ أَطْلُبْ ، قَلِيلٌ مِنَ الْمَالِ
وَلَكِنَّا أَسْعَى لِمَجْدٍ مُؤَنَّلٍ وَقَدْ يُدْرِكُ الْمَجْدَ الْمُؤَنَّلَ أَمْثَالِي

(١) الشَّرَاكَ كَتَّابٍ : سِرِّ الْعَلِّ .

(٢) الضَّرِيب : الظَّيْرِ .

(٣) اسْتَبْدَلْنَا هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ مِنْ شَعْرِ أَبِي نُوَّاسٍ بَيْنَهُ الْوَارِدَيْنِ فِي الْأَصْلِ لِأَنَّهُ أَخْفَشَ فِيهِمَا .

(٤) هُوَ أَبُو عَمْرٍو إِسْحَاقُ بْنُ مِرَارِ الشَّيْبَانِيُّ ، كَانَ مِنَ الْأَنْثَمَةِ الْأَعْلَامِ فِي الْفَنِّ وَرَوَايَةِ الشَّعْرِ

وَالنَّحْوِ . تُوُفِيَ سَنَةَ ٢٠٦ هـ .

(٥) الْفَحْشَى .

فوضع طلب الرفعة وسمو المنزلة موضعهما إذ كان ملكاً، لأن ذلك يليق
[٣٦] بالملوك، ثم وضع القناعة موضعهما لما زال عنه ملكه وصار كواحد من
رعيته، لأن ذلك أولى من هذه منزلته، فقال :

أَلَا إِلَّا ^(١) تَكُنْ إِبْلُ فِعْزَى كَأَنَّ قُرُوبَ جِلَّتْهَا الْعِصَى
إِذَا مَا قَامَ حَالِهَا أَرَنْتُ كَأَنَّ الْحَى صَبَّحَهُمْ ^(٢) نَعَى
فَمَلَا بَيْنَنَا أَقْطَا وَشَمْنَا وَحَسَبُكَ مِنْ غَنَى شَبَعٍ وَرَى

وينبغي لمن كان قوله للشعر تنكسباً لا تأديباً أن يحمل إلى كل سوق
ما يتفق ^(٣) فيها ويخاطب كل مقصود بالشعر على مقدار فهمه . فإليه ربما
قيل الشعر الجيد فيمن لا يفهمه فلا يحسن موقعه منه ، وربما قيل الشعر
الداعر لهذه الطبقة فكثرت فائدة قائله لفهمهم إياه . ولهذا المعنى قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث ترويه عنه الشيعة : ” إنا أمرنا ،
معشر الأنبياء ، بأن نكلم الناس على مقادير عقولهم “ . وقال الشاعر :

وَأَزَلَنِي طَوْلُ النُّوَى دَارَ غَرَبِيَّةٍ إِذَا شِئْتَ لَا قِبْتَ الَّذِي لَا أَشَاكِلُهُ ^(٤)
بِفَاهِلَتِهِ حَتَّى يَقَالَ سَجِيَّةٌ وَلَوْ كَانَ ذَا عَقْلٍ لَكُنْتُ أَعَاقِلُهُ

فهذا ما حضرنا في أقسام الشعر المنظوم . وهو مقنع إن شاء الله .

(١) كذا في شرح ديوانه لأبي بكر عاصم بن أيوب . وفي الأصل : ” إذالم “ .

(٢) كذا في ديوانه . وفي الأصل : ” بينهم “ .

(٣) يروج .

(٤) لا أشبهه وأراقفه .

باب فيه المنثور وما جاء فيه

وليس يخلو المنثور من أن يكون خطابة ، أو ترسلاً ، أو احتجاجاً ، أو حديثاً ، ولكل واحد من هذه الوجوه موضع يُستعمل فيه .

فالخطب تستعمل في إصلاح ذات الدين ، وإطفاء نائرة الحرب ^(١) ، وحالة الدماء ^(٢) ، والتسديد للملك ، والتأكيد للعهد في عقد الأملاك ، وفي الدعاء إلى الله عز وجل ، وفي الإشادة بالمناقب ^(٣) ، ولكل ما أريد ذكره ونشره وشهرته في الناس .

والترسل في أنواع من هذا ، وفي الاحتجاج على المخالفين من أهل الأطراف ، وذكر الفتوح ، وفي المعاتبات والاعتذارات ، وغير ذلك مما يجرى في الرسائل والمكاتبات . والبلاغة في الجميع واحدة ، والمعنى قريب من قريب ، إلا أن الخطابة لما كانت مسموعة من قائلها ، وماخوذة من لفظ مؤلفها ، وكان الناس جميعاً يرمقونه ويتصفحون ^(٤) وجهه ، كان الخطأ فيها غير مأمون ، والحصص ^(٥) عند القيام بها مخوفاً محذوراً ، فاما الرسائل فالإنسان في فسحة من تحريكها ^(٦) وتكرير النظر فيها ، وإصلاح خلل إن وقع في شيء منها . ثم هي نافذة على يد الرسول أو طي الكتاب ،

(١) أي شرها وهيجها .

(٢) أي دياتها .

(٣) المقامير وأحداثها متفية .

(٤) يتصفحون : ينظرون .

(٥) الحصر بالتحريك المعنى في المنطق .

(٦) أي تنقيحها .

فقد كُنِيَ صاحبها المقام الذي ذكرناه ، والحَصْرَ الذي وصفناه . فلهذا صار الخطيب إذا ساوى المترسل في البلاغة كان له الفضل عليه ، كما كان الفضل للشاعر إذا ساوى المتكلم في تجويد المعاني وبلاغة اللسان . وقد قال عبد الله بن الأَهمم (١) : ” إني لست أعجب من رجل تكلم بين قوم فأخطأ في كلامه أو قصر عن حجته ، لأن ذا الحجا قد تناله النجاسة ويدركه الحصر ويعزب عنه القول ؛ ولكن العجب ممن أخذ دواة وقرطاساً وخلا بفكره وعقله ، كيف يعزب عنه باب من أبواب الكلام يريد ، أو وجه من وجوه المطالب يؤممه “

وقد ذكرنا المعاني التي يصيرها الشعر حسناً وبالجمود موصوفاً ، والمعاني التي يصيرها قبيحاً مردولاً ، وقلنا إن الشعر كلام مؤلف ، فما حسن فيه فهو في الكلام حسن ، وما قبح فيه فهو في الكلام قبيح . فكل ما ذكرناه هناك من أوصاف حد الشعر ، فاستعمله في الخطابة والترسل ؛ وكل ما قلناه من معاييبه فتجنبه ههنا .

ثم إنه يخص الخطابة والترسل أشياءً نحن نذكرها ، ونبتدئ باشتقاق الخطابة والترسل من اللغة فنقول : إن الخطابة مأخوذة من خَطَبْتُ أَخْطُبُ خطابةً ، كما يقال : كتبتُ أكتبُ كتابةً . واشتق ذلك من ” الخطب “ وهو الأمر الجليل ، لأنه إنما يقام بالخطب في الأمور التي تجل وتعظم ، والاسم منها خاطبٌ مثل راحم ؛ وإذا جعل وصفاً لازماً قبل خطيب ، كما قيل في راحم رحيم . وجعل رحيم أبلغ في الوصف وأبين

[٣٧]

(١) هو من رجالات العراق في أواخر القرن الأول الهجري . استعان به يزيد ابن المهلب في حمل الخليفة سليمان بن عبد الملك على توليه نراسان عام ٩٧ هـ .

في الرحمة ؛ وكذلك لا يسمّى خطيباً إلا من غلب ذلك عليه وعلى وصفه وصار صناعة له . والخطبة الواحدة من المصدر كالقومة من القيام ، والضربة من الضرب ، وإذا جمعتها قلت خطب مثل جمعة وجمع . والخطبة اسم المخطوب به وجمعها خطب مثل كسرة وكسر . فأما المخاطبة فيقال منها : خاطبت أخاطب مخاطبة ، والاسم الخطاب ، مثل قاتلته أقاتله مقاتلة ، والاسم القتال .

والترسل : من ترسلت أرسلت ترسل وأنا مترسل ، كما يقال توقفت أتوقف توقفاً وأنا متوقف ، ولا يقال ذلك إلا لمن يكون فعله في الرسائل قد تكرر ، كما لا يقال تكسر إلا لمن تردّد عليه الفعل في الكسر . ويقال لمن فعل ذلك مرة واحدة أرسل يرسل إرسالاً وهو مرسل ، والاسم الرسالة . أو راسل يرسل مراسلة فهو مراسل ، وذلك إذا كان هو ومن يرسله قد اشتركا في المراسلة . وأصل الاشتقاق في ذلك أنه كلام يرسل به من بعد أو غاب ، فاشتق له اسم الترسل ، والرسالة من ذلك . والخطبة والخطاب اشتقا من الخطب والمخاطبة ، لأنهما مسموعان .

فمن أوصاف الخطابة : أن تفتتح الخطبة بالتحميد والتجيد ، وتوشع (١) بالقرآن وبالسائر من الأمثال . فإن ذلك مما يزين الخطب عند مستمعيها وتُعظم به الفائدة فيها . ولذلك كانوا يسمّون كلّ خطبة لا يذكر الله في أولها البتراء (٢) وكل خطبة لا توشع بالقرآن والأمثال الشوهاة (٣) ولا يتمثل في الخطب الطوال التي يُقام بها في المحافل بشيء من الشعر . فإن أحب أن يستعمل ذلك في الخطب القصار والمواعظ والرسائل فليقل ، إلا أن

(١) أي تحلى . (٢) و (٣) انظر الجزء الثاني من كتاب البيان والتبيين فيحافظ ص ٢-٣

[٢٧٢م]

تكون الرسالة إلى خليفة فإن محله يرتفع عن التمثيل بالشعر في كتاب إليه ، ولا بأس بذلك في غيرها من الرسائل . وأن يكون الخطيب أو المترسل عارفاً بمواقع القول وأوقاته واحتمال المخاطبين له ، فلا يستعمل الإيجاز في موضع الإطالة فيُقصر عن بلوغ الإرادة . وألا يستعمل ^(١) الإطالة في موضع الإيجاز فيتجاوز مقدار الحاجة إلى الإيجاز والملافة ، وألا يستعمل ألفاظ الخاصة في مخاطبة العامة ، ولا كلام الملوك مع السوقة ، بل يُعطى كل قوم من القوم بمقدارهم ، ويزنهم بوزنهم ، فقد قيل : ” لكل مقام مقال ” . وإذا رأى من القوم إقبالا عليه ، وإنصافاً لقوله ، فأحبوا أن يزيدهم ، زادهم على مقدار احتمالهم ونشاطهم ، وإذا تبين منهم إعراضاً عنه وثقلاً عن استماع قوله خفف عنهم . فقد قيل : ” من لم يتشط لكلامك فارفع عنه مؤونة الاستماع منك ” . وليس يكون الخطيب موصوفاً بالبلاغة ولا منعوتاً بالبلاغة والمخاطبة إلا بوضع هذه الأشياء مواضعها ، وأن يكون على الإيجاز إذا شرع فيه قادراً ، وبالإطالة إذا احتاج إليها ماهراً . وقد وصف بعضهم البلاغة بما قلناه فقال وقد سئل عنها : ” هي الاكتفاء في مقامات الإيجاز بالإشارة ، والاقتصاد في مواطن الإطالة على الغزارة ” . وقال الشاعر في هذا المعنى :

يُرْمون بالخطيب الطوال وتارة وحي الملاحظ خيفة الرقباء

(١) يلاحظ أن ” ألا يستعمل ” معطوف على ” فلا يستعمل ” كما هو واضح من سياق الكلام ؛ لا على ” وأن يكون الخطيب . . . ” حتى يصح ذكر ” أن ” المصدرية .

وقال جعفر بن يحيى (١) : " إذا كان الإكثار أبلغ كان الإيجاز
 تقصيراً ، وإذا كان الإيجاز كافياً كان الإكثار هذراً " ، فبين ما يحمده من
 الإيجاز ، وما يحتاج إليه من الإكثار . فاما المواضع التي ينبغي أن يستعمل
 كل واحد منها فيه فإن الإيجاز ينبغي أن يستعمل في مخاطبة الخاصة وذوى
 الأفهام الثاقبة الذين يجترئون بيسير القول عن كثيره ، ويجهله عن تفسيره ، [٣٨]
 وفي المواعظ والسنن والوصايا التي يراد حفظها ونقلها ، ولذلك لا ترى
 في الحديث عن الرسول عليه السلام والأئمة شيئاً يطول ، وإنما يأتي على غاية
 الاختصار والاختصار ، وفي الجوامع التي تعرض على الرؤساء فيقفون على
 معانيها ولا يشغلون بالإكثار فيها . وأما الإطالة : ففي مخاطبة العوام ومن ليس
 من ذوى الأفهام ومن لا يكتفى من القول بيسيره ، ولا يفتق ذهنه إلا
 بتكريره وإيضاح تفسيره ، ولهذا استعمل الله عز وجل في مواضع من كتابه
 تكرير القصص ، وتصريف القول ، ليفهم من بعد فهمه ويعلم من قصر
 علمه . واستعمل في موضع آخر الإيجاز والاختصار ، لذوى العقول والأبصار .
 فمما روى من الخطب القصيرة والرسائل الموجزة والألفاظ المختصرة ، ما نحن
 ذاكره أو بعضه ليدل على سائره ، فمن ذلك خطبة للنبي صلى الله عليه وسلم ،
 وهي أن قال بعد حمد الله والثناء عليه : " أيها الناس ، كأن الموت في الدنيا
 على غيرنا كُتب ، وكأن الحق فيها على غيرنا وجب ، وكأن الذين [تُسَّع من] (٢)
 الأموات [سَفَرٌ] (٣) عما قليل إلينا راجعون . نبؤهم أجدانهم ، وأنا كل

(١) هو جعفر بن يحيى البرمكي ، كان معروفاً بالفصاحة والبلاغة ، وكان أول الأمر أميراً
 لدى الرشيدى مكيناً عنده ، فلما كتب الرشيد البرامكة قتله أشنع قتله عام ١٨٧ هـ .

(٢) التكلة عن صبح الأعشى ، وموضع التكلة الأول في الأصل بياض .

(٣) السفر بفتح وسكون المسافرون .

تَرَأَاهُمْ ، كَانُوا مُخْلِدُونَ بَعْدَهُمْ . قَدْ تَسِينَا كُلَّ وَاعِظَةٍ ، وَأَمِنَّا كُلَّ جَائِحَةٍ .
طَوَّبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عِيُوبِ النَّاسِ ، وَأَنْفَقَ مِنْ مَالٍ أَكْتَسَبَهُ مِنْ غَيْرِ
مَعْصِيَةٍ ، وَرَحِمَ أَهْلَ الذَّلِّ ، وَخَالَطَ أَهْلَ الْفَقْهِ وَالْحِكْمَةِ . طَوَّبَى لِمَنْ أَذَلَّ
نَفْسَهُ ، وَحَسَّنَتْ خَلِيقَتَهُ ، وَصَحَّتْ سِرِّيَّتُهُ ، عَزَلَتْ عَنِ النَّاسِ شَرَّهُ ، وَأَنْفَقَ
الْفَضْلَ مِنْ مَالِهِ ، وَأَمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ قَوْلِهِ ، وَوَسَّعَتْهُ السُّنَّةُ ، وَلَمْ يَعُدَّهَا
إِلَى الْبِدْعَةِ ” (١) .

خطبة أخرى له عليه السلام :

حَمْدُ اللَّهِ وَأُثْنِي عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : ” أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنْ لَكُمْ مَعَالِمَ فَاتَتْهُوا
إِلَى مَعَالِكُمْ ، وَإِنْ لَكُمْ نَهَايَةٌ فَفَقُّوا عِنْدَ نَهَايَتِكُمْ . إِنَّ الْمُؤْمِنَ بَيْنَ غَايَتَيْنِ :
بَيْنَ أَجَلٍ قَدْ مَضَى لَا يَدْرِي مَا اللَّهُ صَانِعٌ فِيهِ ، وَبَيْنَ أَجَلٍ قَدْ بَقِيَ لَا يَدْرِي
مَا اللَّهُ قَاضٍ فِيهِ ، فَلْيَأْخُذْ أَمْرًا مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ ، وَمِنْ دُنْيَاهُ لِآخِرَتِهِ ،
وَمِنْ الشَّيْئَةِ قَبْلَ الْكِبَرِ ، وَمِنْ الْحَيَاةِ قَبْلَ الْمَوْتِ . وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ
مَا بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ مُسْتَعْتَبٍ (٢) ، وَلَا بَعْدَ الدُّنْيَا مِنْ دَارٍ ، إِلَّا الْجَنَّةُ
أَوْ النَّارُ ” .

خطبة قس بن ساعدة (٣) التي رواها عليه السلام

ذَكَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ رَأَاهُ بِعُكَاظٍ عَلَى جَمَلٍ أَحْمَرَ وَهُوَ يَقُولُ :
” أَيُّهَا النَّاسُ اجْتَمِعُوا ، ثُمَّ اسْمَعُوا وَعُوا . مَنْ عَاشَ مَاتَ ، وَمَنْ مَاتَ

(١) البدعة في الدين ما استحدث فيه من الأهواء والأعمال .

(٢) مصدر بمعنى من استعجب أعطاه العجب وهو الرضا .

(٣) هو من قبيلة إباد ، كان خطيب العرب وحكيما في الجاهلية . ويظن أنه توفي

فات ، وكل ما هو آت . يا معشر إباد ! أين ثمود وعاد ؟ وأين الآباء
والأجداد ؟ وأين المعروف الذي لم يُشكر ؟ وأين الظلم الذي لم يُنكر ؟ أقسم
بُسَ قَسَمًا حَقًّا ، إن الله لَدِينًا هو أرضى عنده من دينكم .“

ثم أنشد شعراً ، فهل من يحفظه ؟ فقال بعضهم أنا أحفظه . فقال :
هاته ! فأنشد :

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر

لما رأيت مَوَارِدًا للموت ليس لها مَصَادِيرُ

ورأيت قومي نحوها يَمْضِي الأصاغر والأكابر

لا يَرْجِعُ الماضي ولا يبقى من الباقيين غابر

أيقنتُ أني لا محَا لَه حيث صار القومُ صائر

ومن كلام أمير المؤمنين رضي الله عنه في الحكمة وألفاظه القصار
المتخبة : ” المرء مجبوء تحت لسانه . قيمة كل امرئ ما يُحْسِن . اعْرِف
الحَقَّ تَعْرِفْ أهله . العلم ضالة المؤمن . أغنى الغنى العقل ، وأفقر الفقر
الحمق . الدنيا دار ممر إلى دار مقر ، والناس فيها رجلان : رجل ابتاع
نفسه فأعتقها ، ورجل باع نفسه فأوبقها ^(١) . إذا قَدَرْتَ على عدوك فاجعل
الصفح عنه شكراً للقدرة عليه . الصبر مطيئة لا تكبو ، وسيف لا ينبو ^(٢) .

(١) أهلكها .

(٢) نجا السيف عن الضريبة : كل ولم يقطع .

[٢٩] عَمَرَتِ الْبِلْدَانَ بِحُبِّ الْأَوْطَانِ . كَفَرَانِ النِّعْمَةِ لُؤْمٌ ، وَصَحْبَةُ الْأَحْمَقِ شُؤْمٌ .
 اتَّبَاعُ الْهَوَى يَصُدُّ عَنِ الْهَدَى . الْحَجَرُ الْغَضَبُ فِي الدَّارِ رَهْنٌ يُخْرَابُهَا ،
 مَا ظَفِيرٌ مِّنْ ظَفَرِ الْإِثْمِ بِهِ . الْغَالِبُ بِالْشَّرِّ مَغْلُوبٌ .

ومن كلام غيره :

”مَنْ الظَّفَرُ تَعْجِيلُ الْيَأْسِ مِنَ الْمُنْتَمِعِ . مَنْ لَمْ يَعْرِفْ شَرَّ مَا يُؤْتَى لَمْ يَعْرِفْ
 خَيْرَ مَا يُبْلَى . الْكَرِيمُ لِلْكَرِيمِ مَحَلٌ . الْمَوْتُ فِي قُوَّةٍ وَعِزٌّ خَيْرٌ مِنَ الْحَيَاةِ
 فِي ذُلٍّ وَعَجْزٍ . لَا زَوَالَ لِلنِّعْمَةِ مَعَ الشُّكْرِ ، وَلَا بَقَاءَ لَهَا مَعَ الْكَفْرِ . شَفِيعُ
 الْمَذْنِبِ إِقْوَارُهُ ، وَتَوْبَتُهُ اعْتِدَارُهُ . عَجِبُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ أَحَدُ حُسَادِ عَقْلِهِ .
 اِمْنَعِ النَّاسَ عَنْ عِرْضِكَ ، بَمَا لَا يُنْكِرُونَهُ مِنْ فِعْلِكَ . مَنْ أَقْلَ أَحَدًا هَابَهُ ،
 وَمَنْ قَصَرَ عَنْ شَيْءٍ عَابَهُ . جَهْلُ الْمَرْءِ بِقَدْرِهِ ، إِهْلَاكُهُ لِنَفْسِهِ . الصَّبْرُ
 حِيلَةٌ مِّنْ لَا حِيلَةَ لَهُ . حَسْبُكَ مِنْ شَرِّ سَمَاعِهِ . أُسْرَ عَوْرَةِ أَخِيكَ ، لِمَا
 يَعْرِفُهُ فِيكَ . مَنْ خَفَّ عَلَى عَدُوِّهِ ، ثَقُلَ عَلَى صَدِيقِهِ . مَنْ أَسْرَعَ إِلَى النَّاسِ
 بَمَا يَكْرَهُونَ ، رَمَوْهُ بِمَا يَعْلَمُونَ وَمَا لَا يَعْلَمُونَ “ . وَهَذَا كَثِيرٌ يَطُولُ بِهِ
 الْكِتَابُ ، وَإِنَّمَا ذَكَرْنَا بَعْضَهُ لِيَدُلَّ عَلَى سَائِرِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

ومن الرسائل القصيرة الآتية على المعاني الكثيرة ، رسالة النبي صلى الله
 عليه وسلم إلى مُسَيِّمَةَ ^(١) ، لما كتب إليه :

”مَنْ مُسَيِّمَةَ رَسُولُ اللَّهِ إِلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ . أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ
 قَسَمَ الْأَرْضَ بَيْنَنَا وَلَكِنْ قَرِيشٌ قَوْمٌ غَدَرٌ “ . فَكُتِبَ إِلَيْهِ : ”مَنْ عَهْدُ رَسُولِ اللَّهِ ،

(١) هو من بني حنيفة ، قتل يوم البزامة في الوقعة التي كانت بينه وبين خالد بن الوليد
 عام ١١ هـ .

إلى مسيئة الكذاب. "أما بعد ، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ،
والعاقبة للمتقين " .

ورسالة يزيد بن الوليد ^(١) إلى مروان بن محمد ^(٢) ، وقد بلغه عنه بعض
التَّحْيُس ^(٣) عن بيعته ، فكتب إليه : " من عبد الله أمير المؤمنين يزيد
ابن الوليد ، إلى مروان بن محمد . أما بعد ، فإني أراك تُقدِّم رجلاً وتؤخر
أخرى . فإذا أتاك كتابي هذا ، فاعتمد على أيتهما شئت والسلام " .

فصلُ للحسن بن وهب ^(٤) : " فأسأل الله أن يبلغني أُمِّي فيك ، فإنها [م٣٩]
دعوة على قصرها طويلة " .

ولسليمان بن وهب ^(٥) : " وإن الدول إذا أقبلت كثرت العدة وإن
أقلت العدد ، وإذا أدبرت كثرت العدد وأقلت العدة " .

(١) هو يزيد بن الوليد الخليفة الأموي المعروف بالناقص . كان من خيرة بني أمية ،
غير أن عهده لم يطل ، فقد توفي في نفس العام الذي تولى الخلافة فيه ، وهو
عام ١٢٦ هـ .

(٢) هو آخر خلفاء بني أمية ، وكان قبل الخلافة أميراً على الجزيرة وأرمينية .

(٣) أي التبع والتردة .

(٤) هو الحسن بن وهب بن سعيد الكاتب ، كان يكتب لمحمد بن عبد الملك الزيات وزير
المعتصم بالله . وكان شاعراً بليغاً . وقد مدحه أبو تمام بقصائد كثيرة ، وله معه مساجلات
شعرية مدونة في كتب الأدب .

(٥) هو أبو أيوب سليمان بن وهب ، أخو الحسن بن وهب الذي سبق التعريف به ، كان
في أول أمره من كتاب الديوان ، ثم وزيراً للهندى بالله والمعتصم على الله العباسيين . وكان
عظيم الفضل ، عزيز الأدب ، بارعاً في صناعة الخط ، وقد رثاه البصري يمنية جيدة . توفي
عام ٢٧٢ هـ .

ولأحمد بن سليمان (١) : "والنعم ثلاث : مُقِيمَةٌ ، وَمُتَوَقَّعَةٌ ، وَغَيْرُ مُحْتَسَبَةٍ . فخرس الله لك مُقِيمَهَا ، وَبَلَغَكَ مُتَوَقَّعَهَا ، وَأَتَاكَ مَا لَمْ تَحْتَسِبْ مِنْهَا" ، وله أيضًا : "واعلم أَنَّ الْحَقَّ لِمَنْ أَصَابَهُ ، لَا لِمَنْ أَخْطَاهُ وَقَدْ أَرَادَهُ" .

ولمحمد بن عبد الملك (٢) : "ولو لم يكن من فضل الشكر إلا أنه لَا يَرَى إِلَّا بَيْنَ نِعْمَةٍ مَقْصُورَةٍ عَلَيْهِ أَوْ زِيَارَةٍ مُنْتَظَرَةٍ بِهِ"

ولأبي الربيع (٣) إلى يحيى بن خالد (٤) في اختيار العيال : "وليس لك أن تقول لربك : لم تجد ، وأنت لم تجتهد" . ولابن مكرم (٥) ، "وأسألك عفو إمكانك في حاجتي ، وأضمن لك جهدي في شكرك" . وفصل في تعزية : "وخير حواشي نِعَمِكَ مَا نَقَدَ وَوَقَاكَ ، أَوْ بَقِيَ فَسَلَاكَ" ، وفصل آخر : "والناس متقاربون حتى يحدث لأحدهم غنى موسع ، أو فقر مدقع ،

(١) هو في أغلب الظن أحمد بن سليمان بن وهب الذي سبق التعريف به . روى الطبري في تاريخه أنه لما أمر أبو أحمد الموفق في عام ٢٦٥ بقبض أموال بني وهب استثنى من ذلك أحمد بن سليمان المذكور .

(٢) هو محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتمد والوائق من بعده . وكان جيارا فاسيا قتله المتوكل على الله العباسي في ثورة ابتكره محمد بن عبد الملك ليعذب فيه من يريد عذابه .

(٣) هو في أغلب الرأي محمد بن يعقوب المعروف بأبي الربيع . ولله المتوكل المظالم عام ٢٣٧ كما روى الطبري .

(٤) كذا بالأصل . ولم نثر على هذا الاسم فيما بين أيدينا من المراجع ولعله محرف عن « يحيى بن خاقان » الخراساني مولى الأزدي . روى الطبري أن المتوكل ولده ديوان الخراج عام ٢٣٤ هـ . وبذلك يستقيم قول المؤلف « ولأبي الربيع الخ » .

(٥) لعله ابن مكرم القاضي الذي روى الطبري أنه ولد فداء الأسرى بين المسلمين والروم عام ٢٨٢ هـ .

أو سكر سلطان ، أو نبوة زمان ، أو خوف يتصل به خور ، أو أمن يدعو إلى بطل (١) .

آخر ، في فصل من كتاب : "ومن نكد الزمان أنى ما عاشرت أحداً إلا أنزلتنى عشرته بين صبر على أذى أو فراق على قلى" . آخر : "والاعتذار منك تفضل ، ومنا تنصل" .

ومن مؤخر التوقيعات (٢) : وقع أبو صالح بن يزداد (٣) إلى رجل أذنب : "قد تجاوزت عنك ، فإن عدت أعدت إليك ما صرفته عنك" . وإلى آخر خافه : "ليس عليك بأس ، مالم يكن منك بأس" . وإلى آخر أدل بكفاية : "أدلت فأملت ، فاستصغر ما فعلت تنل ما أملت" . ووقع المأمون إلى عامل له شكى : "قد كثر شاكوك ، فأما عدلت ، وإلا اعتزلت" . ووقع في أمر الجند : "لا يعطوا على الشغب ، ولا [٤٠] يحوجوا إلى الطلب" . ووقع طاهر بن الحسين (٤) : "والله لئن هممت لأفعلن ، ولئن فعلت لأبرمن ، ولئن أبرمت لأحكمن" . ووقع يحيى بن

(١) في الأصل إلى « نظير » .

(٢) التوقيعات عندهم هي تعليقات الوزراء والرؤساء على ما يرفع اليهم من الرسائل والقصص ، وكانوا ينسخون فيها الإيجاز في اللفظ والبلاغة في المعنى .

(٣) هو أبو صالح محمد بن يزداد ، كان وزير الخليفة العباسي المستعين بالله الذي قتل عام ٢٥٢ هـ .

(٤) هو قائد جيوش المأمون في الحرب التي برت بينه وبين أخيه الأمين ، وكان أدبياً محباً للنشر ، ولله المأمون نراسان سنة ٢٠٥ هـ ، فكان بذلك مؤسس الدولة الطاهرية بها ، توفي عام ٢٠٧ هـ .

خالد^(١) في نكته إلى رجل سألَه عن حاله : "أحسنُ الناسِ حالا في النعمة من ارتبط مُقيمها بالشكر ، واسترجع ماضيها بالصبر" . ووقع محمد بن خالد^(٢) إلى عامل له : "أبخرِ أمورك على ما يكسبك^(٣) الثناء ، ويكسبنا الدعاء . واعلم أنها أيام تنقضي ، وأعمار تنتهي ؛ فلما ذكر جميل ، أو خزي طويل " .

وإن رُمنا أن تأتي بكل ما سمعنا في هذا الباب من مختصر الدعاء والوصايا ، وقصير التوقيعات والخطب ، طال علينا وشغلنا عما إليه أبحرنا . وإنما ذكرنا مثالا يحنذي عليه اللبيب ، ويستن^(٤) به الأديب ؛ فأما الخطب الطوال ، والرسائل الكبار ، فهي مدونة موجودة في كتب الناس .

ومن برع في المعنيين من الإيجاز والإطالة ، فسلم في الإيجاز من التقصير وفي الإطالة من الإسهاب والتكثير ، وتقدم الناس جميعا في ذلك كتقدمه في سائر فضائله ، أمير المؤمنين عليه السلام . وله من الخطب الطوال المشهورة : الزهراء ، والغراء ، والبيضاء ، وغيرهن مما قد حُمل عنه ونُقِل إلينا من قوله . وإنما تحسن الإطالة وبسط الكلام كما قلنا في تفسير الجمل ، وتكرير الوعظ ، وإفهام العامة . ويليق ذلك بالأئمة والرؤساء ومن يقتدى به ،

(١) هو يحيى بن خالد البرمكي ، مؤدب الرشيد قبل الخلافة ووزيره المصروف لشؤون الدولة بعد أن استخلف . نكبه الرشيد مع سائر البرامكة ومات في محبة عام ١٩٠ هـ .

(٢) هو في أغلب الرأي محمد بن خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني . يروي الطبري أن المستعين قلده النور الحزري عام ٢٥١ هـ ، وكان له بلاء في الفتن التي وقعت بالعراق عامئذ .

(٣) يقال كسبه خيرا أو كسبه إياه ، والآخر أول أفصح .

(٤) أي يقتدى به .

ويؤخذ عنه . فأما العامة والجمهور فلا يليق ذلك بهم ، ولا ينبغي أن يتركوا يستعملونه ، فإنها لقاح التباين ، وسبيل الاختلاف ، وسبب التشتت . وقد روى أن عَمَّاراً ^(١) رحمه الله تكلم يوماً فأوجز ، ف قيل له : « لو زدتنا » ، ! فقال : « أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم باختصار الخطب » ، ولهذا المعنى قال شاعر الخوارج :

كُنَّا أَنَا سَاءَ عَلَى دِينٍ فَفَرَقْنَا قَدَحُ ^(٢) الْكَلَامِ وَخَلَطَ الْجِدَّ بِاللَّيْبِ
مَا كَانَ أَغْنَى رَجُلًا صَلَّ سَعِيَهُمْ عَنِ الْجِدَالِ وَأَغْنَاهُمْ عَنِ الْخُطْبِ

ومن استعمل في قوله وكتبه الإيجاز والاختصار من القدماء ، ليهون [٤٠م] بذلك حفظ كتبه على من يريد حفظها ، ويُقَرَّب على ناقل كتبه وأقواله نقلها ، أرسطا طاليس وإقليدس ^(٣) ، فإنهما لم يأتيا في شيء من كلامهما بما يتبها لأحد أن يختصره ، أو يأتي بمعناهما بأقل من لفظهما . ومن استعمل الشرح والإطالة منهم لِيُفْهَمَ المتعلم ، ويفصل المعاني لِيُنْفَهِم ،

(١) هو عمار بن ياسر أحد أجلاء الصحابة ، ومن أصحاب علي عليه السلام ، قتل في ربيعة صيف عام ٣٧ هـ .

(٢) قدحه ثبته رما بالفتح وسوء القول .

(٣) عالم رياضى يونانى ، اشتهر بالاسكندرية على عهد بطليموس الأول (٣٠٦ — ٢٨٢ ق م) . وهو صاحب كتاب « أصول الهندسة » الذى نقل إلى العربية مرة لقرشيد ، وأخرى للآمون ، ونقله ثالثة نصير الدين الطوسى في القرن السابع الهجرى .

جَالْتَنُوسُ^(١) و^(٢) يوحنا النحوى^(٣) . وكلُّ قد قصّد مقصداً لم يُرد به
إلا النفع والخير .

ومن الأوصاف التي إذا كانت في الخطيب سُميَ سديداً ، وكان من
العيب معها بعيداً ، أن يكون في جميع ألفاظه ومعانيه جارياً على سجيته ،
غير مستكره لطبيعته ولا متكلف ما ليس في وسعه ، فإنَّ التكلف إذا
ظهر في الكلام هجّنه وقبح موقعه . وحسبك من ذم التكلف أن الله
عز وجل أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالتبرؤ منه ، فقال : ” قُلْ
مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ”^(٤) ، وألا يظن أن
البلاغة إنما هي الإغراب في اللفظ والتعمق في المعنى ، فإن أصل الفصح
من الكلام ما أفصح عن المعنى ، والبلغ ما بلغ المراد ، ومن ذلك اشتقا .
فأفصح الكلام ما أفصح عن معانيه ولم يُحوج السامع إلى تفسير له ،
بعد ألا يكون كلاماً ساقطاً أو لألفاظ العاقمة مشبهاً . ولذلك قال بعضهم

(١) خليب يوناني يعتبر أشهر أطباء القدماء بعد أبقراط ، برع في فن التشريح ووظائف
الأعضاء . وكان إلى جانب ذلك فيلسوفاً يؤمن بالله واحد وبالقضاء والقدر ، وقد ترجمت كتبه
إلى العربية زمن ازدهار المدنية الإسلامية . ولد بمدينة برغاموم بآسيا الصغرى عام ١٣٠ م .
وتوفي بصلبة عام ٢٠٠ م .

(٢) في الأصل « أو » بدل وار العطف .

(٣) ويقال له أيضاً يوحنا فيلو بونوس ، فيلسوف يوناني اسكندري . عاش في أواخر
القرن الخامس الميلادي وأوائل السادس ، وعرف بالنحوى لتوفره على دراسة النحو والأدب
ونسب إليه طائفة كبيرة من الكتب الموضوعة في اللاهوت والفلسفة . وبعض مؤرخي العرب
يزعم أنه هو الذي طلب من عمرو بن العاص أن يهبه ما في مكتبة الاسكندرية من الكتب فلم
يفعل عمرو وأحرقها بإذن الخليفة عمر . وقد ثبت أن هذا كله وهم وخطأ .

(٤) سورة ص .

في وصف البلاغة : ” هي أن يتساوى فيها اللفظ والمعنى ، فلا يكون اللفظ
 أسبق إلى القلب من المعنى ، ولا المعنى أسبق إلى القلب من اللفظ “
 وليس يُنكر مع ذلك أن يُكلم أهل البادية بما في سميتها علمه ،
 ولا ذوو الأدب بما في مقدار أدبهم فهمه ؛ وإنما يُنكر أن تُكلم الحاضرة
 والمولدون من الغريب بما لا يعرفون وبما هم إلى تفسيره محتاجون ، وأن
 تُكلم العامة السخفاء بما تُكلم به الخاصة الأدباء . وإنما مثل من كَلَّمَ [٤١]
 إنساناً بما لا يفهمه وبما يحتاج إلى تفسير له كمثل من كَلَّمَ عربياً بالفارسية ؛
 لأن الكلام إنما وُضِع ليُعرف به السامع مراد القائل ، فإذا كَلَّمه بما لا يعرفه
 فسواء عليه أكان ذلك بالعربية أم غيرها . فما جرى في هذا الباب مجراه
 المعهود ، وسُئِلَ به في سبيله المقصود ، وأُثِرَ به طريقه المحمود ، قول طَخْفَةِ
 ابن زُهَيْر التَّهْدِي لرسول الله صلى الله عليه وسلم في كلام له طويل أغرب
 فيه : ” ولنا نعم هَمَلٌ أغفال ، ما تبصُّ بِلَال ، ووَقِيرٌ قَبِيلُ رَسَل
 كثيرُ الرِّسَل ، أصابتها سنةٌ حمراءُ مؤزلةٌ ليس لها عِلَل ولا نَهْل “ (١)
 فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ” اللهم بارِكْ له في مُحَضِّها ونَحَضِّها ومدَّقِّها ؛
 واحبس راعِيها في الدَّثْرِ ، بياض الثَّمر ، واجفُرْ له الثَّمَد ؛ وبارِكْ له

(١) طخفة بن زهير التهدي - وأورده ابن الأنبار ” طهفة “ بالهاء . وقد على الرسول
 عام ٩ هـ . أغفال أي غير مرعية لإعواز النبات . ما تبصُّ بِلَال أي ما يظلمها ابن . الوقير :
 الغنم ، الرسل بكسر الراء ومكون السين : اللبن ، والرسل يفتح أوله وثانيه من الأبل
 والغنم : ما بين عشرة إلى خمسة وعشرين . سنة حمراء أي شديدة . مؤزلة من آذنت السنة
 أنت بالآؤل وهو الضيق والشدة ، العلل : الشرب بعد الشرب ، والنهل محركة : أول الشرب .

في المال والولد» (١) في كلام له طويل. وكقول الآخر له في بعض سؤاله
 إياه: أُتِدَّ أَلِك (٢) الرجل امرأته يا رسول الله؟ قال: نعم، إذا كان
 مُفْرَحًا (٣)، فهذا كلام من السائل والمستأول والقائل والمحجب، حسن
 مانور، لأنه مفهوم بين من يخاطب به. وإنما يُستنكر من ذلك الموضوع
 غير موضعه والمخاطب به غير أهله؛ كقول أبي علقمة (٤) النحوى وقد
 عنر فسقط فاجتمعت عليه العاقمة فقال: ما بالكم تنكحون كئون (٥)
 على كأنما تنكحون على ذى جنة (٦) افرقعوا (٧) عني! وكقول
 آخر من أهل زماننا: كنت في عقابيل (٨) من عاتى فتلفعت
 بالعفسليل (٩) فهذا وشبهه منكر قبيح لا ينبغي أن يستعمله ذو عقل

(١) المحض: اللبن الخالص. النحض: اللحم. وفي رواية ابن الأثير «مخصا» بالميم
 والطاء. والمحض: تحريك السقاء الذي فيه اللبن ليخرج زبد. والمذق: المزج والخلط. الدر:
 المال الكثير، والمراد به هنا الحصب وكثرة النبات. أبفر: بفر الماء. وبجره أساله. أئد:
 الماء القليل.

(٢) يذالك بمأطل.

(٣) المفرج بصيغة اسم المفعول الذي أثقله الدين.

(٤) هو أبو علقمة النحوى القيرى. أصله من واسط، واشتهر في النصف الثاني من القرن
 الأول الهجرى وقد ترجم له ياقوت في الجزء الخامس من كتابه معجم الأدياء وأورد أخبارا عجيبه
 عن تفرقه في اللغة ورواه بحوشى الكلام.

(٥) تجتمعون.

(٦) الجنة الجنون.

(٧) تفرقوا.

(٨) واحد من عقول وهو بقية المرض.

(٩) العفسليل الكساء القليظ.

صحيح . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إياكم والتشادق “ (١) .
وقال : ” أبغضكم إلى الثرثارون المتفيهقون “ (٢) . وقال ” من بدا جفا “ .

ومن أوصاف البلاغة أيضاً السجع في موضعه ، وعند سماحة القريجة [م٤١] به ، وأن يكون في بعض الكلام لا في جميعه ، فإن السجع في الكلام كمثل القافية في الشعر ، وإن كانت القافية غير مستغنى عنها والسجع مستغنى عنه . فاما أن يلزمه الإنسان في جميع قوله ورسائله وخطبه ومناقلاته فذلك جهل من فاعله وعي من قائله ، وقد روي الكراهية فيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فروى أن رجلاً سأل فقال : يا رسول الله ! أرايت من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح فاستهل (٣) ، أليس مثل ذلك بطل ؟ “ (٤) قال فقال : ” أشجع كسجع (٥) الجاهلية ! “ وإنما أنكر صلى الله عليه وسلم ذلك ، لأنه أتى بكلامه مسجوعاً كله ، وتكلف فيه السجع تكلف الكهان . وأما إذا أتى به في بعض كلامه ومنطقه ولم تكن القوافي مختلفة متكلفة ، ولا متمحلة (٦) مستكرهة ، وكان ذلك على سجية الإنسان وطبعه ، فهو غير منكر ولا مكروه ، بل قد أتى في الحديث : ” ويقول العبد مالى مالى ، وماله من ماله إلا ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو أعطى فأمضى “ . ومما

(١) أن يلزم الرجل شدته للتفصح .

(٢) هم المتوسعون في الكلام من غير احتياط واحترار .

(٣) استهل المص : رفع صوته عند ولادته .

(٤) بطل : أى لا تدفع دينه . ويعرف هذا الحديث بحديث الجحش .

(٥) كذا في البيان والتهيين . وفي الأصل : ” كسجع في الجاهلية “ بزيادة كلمة ” في “

(٦) أى محالاً لها .

تكلّم به بعض أهل هذا العصر فأتى بالسجع فيه محموداً ، ومن الاستكراه بعيداً ، قوله / "والحمد لله الذي ذخر المنة لك ، وأخرها حتى كانت منك ، فلم يسبقك أحد إلى الإحسان إلى ، ولم يحاضك أحد في الإنعام على ، ولم يتقسم الأيادي شكرى فهو لك عتيد ، ولم يتخلق المنة وجهى فهو لك مصون جديد ، ولم يزل ذمامى مضاعفاً حتى رعيته ، وحق مبخوساً حتى قضيته ، ورفعت من ناظرى بعد انخفاضه ، وبسطت من أملى بعد انقباضه ، فليس أعتد يداً إلا لك ، ولا منة إلا منك ، ولا أوجه رغبتي إلا إليك ، ولا أتكلم في أمرى بعد الله إلا عليك ، فصانك الله عن شكر من سواه ، كما صنتني عن شكر من سواك". ومما يباين هذا مما وضع غير موضعه قول صديق لنا في فصل من رُقعة له : "ورزقني عدلك ، وصرف عني خذلك". وقوله أيضاً : "ولقد جلت عندي بآب فلان المصيبة ، وعظمت الشصيبة" (١) . وقول آخر في صدر رُقعة : "أطال الله بقاءك لي خصيصاً ، ولأودائك فيصوصاً" (٢) . ولقد شهدت مرة ابن التستري (٣) ، وكان يتقعر في منطقته ، ويطلب السجع في كتبه ، ويستعمل الغريب في ألفاظه ، وقد لقي امرأة عجوزاً فقال لها : "خلى عن سنن الطريق يا خمة !" فظنت أنه قال لها : "يا خبة !" فتعلقت به وصاحت : "يا معشر المسلمين ! نصراني يقول لمسلمة يا خبة !" فأخذته

(١) الشصيبة : الشدة والجذب .

(٢) لم نعثر على معنى قوله "فيصوصاً" ولعله لفظ موضوع للاعزاز والتدليل .

(٣) في الأصل "البستري" بالباء وهو نصيف قال فيه صاحب الفهرست "وهو سعيد بن إبراهيم البستري ... وكان نصرانياً قريب العهد ومن صنائع بني الفرات هو وأبوه . ويلزم السجع في مكتبته" . - ركونه من صنائع بني الفرات يفيد أنه عاش في أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع

الأيدى والنعال حتى كاد أن يثَلَف . ولو كان لزوم السجع في القول والإغراب فيه وفي اللفظ هما البلاغة لكان الله عز وجل أولى باستعمالهما في كلامه الذي هو أفضل الكلام ، ولكان النبي صلى الله عليه وسلم والأئمة المهديون (١) قد استعملوهما ولزموا سبيلهما وسلكوا طريقتهما ؛ فأما ولنا واجدين فيما في أيدينا من كلامهم استعمال السجع والغريب إلا في المواضع اليسيرة ، فهم أولى بأن يُقْتَدَى بهم ويحتذى بمنهاجهم ممن قد ثبت في هذا الوقت من هؤلاء الذين ليس معهم من البلاغة إلا ادعائها ، ولا من الخطابة إلا التحلي باسمها .

وما يزيد في حسن الخطابة وجلالة موقعها جهارة الصوت ، فإنه من أجل (٢) أوصاف الخطباء ، ولذلك قال الشاعر :

جَهِيرُ الْكَلَامِ جَهِيرُ الْعُطَّاسِ شَدِيدُ النِّيَاطِ جَهِيرُ النَّعَمِ (٣)

وقال آخر :

إِنْ صَاحَ يَوْمًا حَسَبَتْ الصَّخْرَ مَنْحَدْرًا وَالرَّيْحَ عَاصِفَةً وَالْمَوْجَ يَلْتَطِمُ

(١) يريد المؤلف أئمة الشيعة الاثني عشرية لأنه كما يؤخذ من قرائن كثيرة في هذا الكتاب كان على مذهب هذه الفرقة .

(٢) في الأصل : "أحد" .

(٣) نِيَاطُ الْقَلْبِ عِرْقُ غَلِيظٍ نِيَطُ بِالْقَلْبِ إِلَى الرَّيَاسِ .

وذم آخر بعض الخطباء بركة الصوت وضآلته ، فقال :

ومن عجب الأيام أن قمتَ خطيباً وأنت ضئيلُ الصوت مستفخُ السَّحر (١)

وليس يلتفت في الخطابة إلى حلاوة النعمة ، إذا كان الصوت جهورياً ،

[٢٤٢] لأن حلاوة النعمة إنما تُراد في التلحين والإنشاد دون غيرهما . وليس ينبغي

للخطيب أن يَحْصِرَ عند رَمَى الناس بأبصارهم إليه ، ولا يعبا بالكلام عند

إقبالهم عليه . فقد روى أن عثمان رضى الله عنه لما بُويع له صعد المنبر

فَحَصَرَ وأَرْجَحَ عليه (٢) ، فقال : ”أيها الناس ! إنكم إلى إمام عادل أحوجُّ

منكم إلى إمام قائل . وإن أبا بكر وعمر كانا يُعدَّان لهذا المقام مقالاً وستأتيكم

الخطبة على وجهها إن شاء الله “ ، وأَرْجَحَ على آخر وقد رقى المنبر فزَلَّ وأنشأ

يقول :

فإلا أكن فيكم خطيباً فائتئ بسيفي إذا جدَّ الوَعْيُ لخطيبُ

فكان يقال : لو قاله وهو على المنبر كان من أخطب الناس . وقد

استعاذ الشاعر من الحَصَرِ والعَيِّ فقال :

أعدُّنى رَبِّ من حَصَرٍ وعِيٍّ ومن نَفْسٍ أعالِجها علاجاً

(١) انفتح بحره بفتح السين أى عدا طوره وجاوز قدره . ومن معاني السحر أيضا الرنة .
يقول ابن رنم ثلاث تحريف صدره فضول صوته .

(٢) أَرْجَحَ عليه ، بالياء للجهول ، استغلق عليه الكلام .

وينبغي له أن يتتبع خيانه البديهة في أوقات الارتجال ، ولا يغتره انقياد القول له في بعض الأحوال ، فيركب ذلك في سائر الأوقات وعلى جميع الحالات ، فإن وثق بانقياد القول له ومساعدته (١) إياه ، فأتى بالبديهة بما يأتى به غيره بعد الروية ، فذلك الخطيب الذى لا يعادله خطيب ، والأديب الذى لا يوازيه أديب ، وبذلك وصف الشاعر بعضهم فقال :

فَهَرَّ الْأُمُورَ بِدِيَهَةٍ كَرَوِيَةٍ مِنْ غَيْرِهِ وَقَرِيحَةٍ كَتَجَارِبِ

وَأَنْ يُقِلَّ اتَّخَضَحَ ، وَالسَعَالَ ، وَالْعَبَثَ بِاللَّحِيَةِ ، فَإِنْ ذَلِكَ عَنْدهُمْ مِنْ دَلَائِلِ الْعِيِّ ، وَفِيهِ يَقُولُ الشَّاعِرُ :

وَمِنْ الْجَبَّارِ مَقُولٌ مُتَشَتِّعٌ جَمُّ التَّنَحُّجِ مُتَعَبٌ مَبْهُورٌ (٢)

ومما يدل أيضاً عندهم على الحصر وتَصَعُّبِ القول وشِدَّتِهِ على القائم به ، الْعَرَقُ . قَالَ الشَّاعِرُ :

لَهُ دَرٌّ عَامِرٌ إِذَا نَطَقَ فِي حَقْلٍ أَمْلَاكَ وَفِي تِلْكَ الْحَلَقِ
لَيْسَ كَقَوْمٍ يُعْرِفُونَ بِالسَّرَقِ (٣) مِنْ كُلِّ نَضَّاحِ الذَّفَارَى بِالْعَرَقِ (٤)

(١) أى مساعدته وتواثامه .

(٢) أى متقطع النفس من الأعياء .

(٣) سرفت مفاصله كقروح ضعفت .

(٤) نصحت القرية كمنع رنحت .

(٥) واحداً منها ذفرى وهى العظم الشاخص من خلف الأذن .

وَيُرْوَى أَنَّ يُزِيدَ بْنَ عُمَرَ بْنِ هُبَيْرَةَ ^(١) تَكَلَّمَ بِحَضْرَةِ هِشَامٍ ^(٢) أَحْسَنَ ؛
 فَقَالَ هِشَامُ : ” مَا مَاتَ مِنْ خَلْفٍ هَذَا “ فَقَالَ الْأَبْرَشُ الْكَلْبِيُّ ^(٣) :
 ” لَيْسَ هُنَاكَ ! أَمَا تَرَى جَبِينَهُ رَشَّحَ لِضَيْقِ صَدْرِهِ ؟ “ فَقَالَ لَهُ يُزِيدُ :
 [٤٣] ” مَا لَذَلِكَ رَشَّحَ ، وَلَكِنْ لِقَعُودِكَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ “ وَكَانُوا يَتَعَاطَوْنَ سَعَةً
 الْأَشْدَاقِ وَتَبْيِينَ مَخَارِجِ الْحُرُوفِ ، وَيمْتَدِّحُونَ بِذَلِكَ وَيَطُولُ اللِّسَانُ ،
 وَيَعْدُوْنَهُمَا مِنْ آلَاتِ الْخُطَابَةِ ؛ قَالَ الشَّاعِرُ :

تَسَادَقَ حَتَّى مَالَ بِالْقَوْلِ شِدْقُهُ وَكُلُّ خُطِيبٍ لَا أَيْلَكَ أَشْدَقُ

وَرُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ لِحَسَّانَ : ” مَا بَقِيَ
 مِنْ لِسَانِكَ ؟ “ فَأَخْرَجَهُ حَتَّى ضَرَبَ بِطَرَفِهِ أَرْبَبَتَهُ ^(٤) ثُمَّ قَالَ : ” وَاللَّهِ
 مَا يَسُرُّنِي بِهِ مَقُولٌ ^(٥) مِنْ مَعَدٍّ ، وَاللَّهِ لَوْ وَضَعْتَهُ عَلَى صَخْرٍ لَفَلَقَهُ أَوْ عَلَى
 شَعَرٍ لَحَلَقَهُ “ .

وَيَذْنِبِي لِلْخُطِيبِ أَلَّا أَسْتَعْمَلَ فِي الْأَمْرِ الْكَبِيرِ الْكَلَامَ الْفَطِيرَ ^(٦) الَّذِي لَمْ
 يُخَمَّرْهُ ^(٧) التَّدْبِيرُ وَالتَّفَكِيرُ ؛ فَيَكُونُ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

وَذِي خَطَلٍ ^(٨) فِي الْقَوْلِ يَحْسِبُ أَنَّهُ مُصِيبٌ وَمَا يَعْزِضُ لَهُ فَهُوَ قَائِلُهُ

(١) ولى العراق ثلاثين من عام ١٢٨ هـ وقتله العباسيون غدرا بواسط عام ١٣٢ هـ .

(٢) هو هشام بن عبد الملك بن مزران الخليفة الأموي المشهور . ولى الخلافة من عام

١٠٥ إلى عام ١٢٥ هـ .

(٣) حاجب الخليفة هشام وكان يثق برأيه ويؤيد بشيئه .

(٤) الأربعة طرف الأنف .

(٥) لسان .

(٦) الفطير كل ما أمجج عن الإدراك والنصح .

(٧) لم ينضجه .

(٨) الكلام القاسد الكثير .

بل يكون كما قال الآخر :

وَقُوفٌ لَدَى الْأَمْرِ الَّذِي لَمْ يَنْ لِهْ وَيَمْضِي إِذَا مَا شَكَ مِنْ كَانَ مَاضِيًا

وَأَنْ يَكُونَ لِسَانُهُ سَالِمًا مِنَ الْعُيُوبِ الَّتِي تَشِينُ الْأَلْفَاظَ ، فَلَا يَكُونُ الْأَلْفُ (١) ، وَلَا فَا فَاءَ (٢) وَلَا ذَا رِيَّةَ (٣) وَلَا تَمَتَّامًا (٤) وَلَا ذَا حُسْبَةِ (٥) وَلَا ذَا لَفِّ (٦) فَإِنْ ذَلِكَ أُجْمِعَ مِمَّا يَذْهَبُ بِهِاءَ الْكَلَامِ ، وَيَهْجَنُ الْبَلَاغَةَ ، وَيَنْقُصُ حِلَاوَةَ النُّطْقِ . وَقَدْ ذُكِرَ أَنَّ وَاصِلَ بْنَ عَطَاءَ (٧) كَانَتْ قَبِيحَ اللَّشَعَةِ عَلَى الرَّاءِ ، وَكَانَ إِلَى الْمُسَافَلَاتِ (٨) وَارْتِجَالِ الْخُطْبِ لِأَهْلِ نَحْلِهِ وَمُسْتَحْسِنِي دَعْوَتِهِ مُحْتَاجًا ، فَرَاضَ لِسَانِهِ حَتَّى أَخْرَجَ الرَّاءَ مِنْ مَنْطِقِهِ ، وَخُطِبَ خُطْبَةً طَوِيلَةً تَدْخُلُ فِي عِدَّةِ أَوْرَاقٍ لَمْ يَلْفُظْ فِيهَا بِالرَّاءِ ، فَكَانَ مِمَّا يَعَدُّ مِنْ فَضَائِلِهِ وَعَجِيبٍ مَا اجْتَمَعَ فِيهِ . وَيُرْوَى أَنَّ زَيْدَ بْنَ عَلِيٍّ (٩) رَحِمَهُ

(١) الألف الذي لا يستطيع أن يتكلم بالراء .

(٢) الفاء الذي يكثر ترداد الفاء إذا تكلم .

(٣) أي ذَا عَمَلَةٍ فِي الْكَلَامِ وَقَوْلُهُ أَمَانَةٌ . وَقِيلَ الرِّيَّةُ أَنَّ يَنْقَلِبُ اللَّامُ يَاءً .

(٤) التمام من تردد الراء في كلامه .

(٥) الحسنة تعذر الكلام عند إزادته .

(٦) اللف في الكلام نقل رعي مع ضعف ، ورجل ألف أي عجز بطل . الكلام إذا تكلم ملا لسانه .

(٧) هو مؤسس مذهب الاعتزال وأحد الأئمة البلغاء المتكلمين في علم الكلام وغيره . ولد عام ٨٠ هـ وتوفي سنة ١٨١ هـ .

(٨) المخادعات ، يقال ما قلت فلاناً الحديث إذا حدثه وحديثه .

(٩) هو زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب . تخرج على أبي أمية عام ١٢١ هـ ومثل بالكوفة سنة ١٢٢ هـ . وإليه تنسب الشيعة الزيدية المعبرة أكثر فرق الشيعة عند الام .

الله خطب بعد خطبة خطبها الجمحي (١) فأحسنها وأجادها ، إلا أن الجمحي كان بأسنانه فلج (٢) شديد ، فكان يصفر في كلامه ، فلما تساوى كلامهما في الوزن وحسن النظم وإصابة المعنى ، وسلم زيد بن علي رحمه الله من الصغير الذي كان في كلام الجمحي ، فضّل عليه ، فقال عبد الله بن معاوية بن جعفر (٣) يصف خطبة زيد .

قَلْتُ قَوَادِحُهَا (٤) وَتَمَّ عَدِيدُهَا فَلَهُ بِذَلِكَ مَرِيَّةٌ لَا تُنْكِرُ [م:٤٣]

فهذه جمل ما يحتاج إليه في الخطابة إذا كانت مسموعة . فأما الرسائل فهي مستغنية عن جَهارة الصوت وسلامة اللسان من العيوب ، لأنها بالخط ، فتحتاج إلى أن تشاهد ويساعد حسنُ الخط ، فإن ذلك يزيد في بهائها ويقرّبها من قلب قارئها . والأصل في الخط أن تكون حروفه بنية قائمة ، ومن الإشكال بعيدة سالمة ، ثم إن كان مع صحته وبيانه حلواً حسناً كان ذلك أزيد في وصفه . والأصل يستعمل به التخفيف الذي يعميه إلا مع من جرت عادته بقرءة مثل ذلك واستعماله ، كنحو ما جرت عادة الكتاب في تعليق الميم ، وإقامة الكاف وتصير شكلة (٥) عليها تفرق بينها وبين اللام ، ومد

(١) لم نقتر على ترجمة الجمحي هذا . ولعله الجمحي الذي يستدل إليه بأقوت بعض اختيار أبي طرفة النحوي (معجم الأدباء ج ٥ ص ٧٣) .

(٢) الفلج تباعد ما بين الناي والرياحات ، يقال رجل أفلج وامرأة فلجاء .

(٣) هو عبد الله بن معاوية بن جعفر بن أبي طالب الذي خرج على الأمويين بالمشرك وقتل عام ٥١٢٧ هـ .

(٤) عيوبها .

(٥) في الأصل : "تصير كل شكلة" زيادة كلمة "كل" .

السين وتصير شكالة عليها ، أو تنقيط ثلاث نقط من تحتها ، فإن استعمال ذلك مع من جرت عادته باستعماله كاستعمال الغريب مع من يفهمه ، واستعمال إقامة الحروف على حقائقها وأصول أشكالها ، كاستعمال المعهود من الكلام المصطلح عليه مع سائر الناس . وألاً يمد الحروف التي لم تجر العادة بمدّها ، فإن أبا أيوب ^(١) رحمه الله كان يقول : ” المدة في الخط في غير موضعها لحن في الخط “. وأن يتفقد قلمه بقطه ^(٢) وتسويته ، فإن أبا أيوب رحمه الله كان يقول : ” القلم الرديء كالولد العاق “. ومما يزيد الخط حسناً ، ويُمكن له في القلوب موضعاً ، شدة سواد المداد وجودة الإلقة ^(٣) الدواة فإنه يجرى من الخط مجرى القطن من الثوب ، فمتى كان القطن رديء الجوهر ، لم ينفع النسيج حذقه ، ووضع من الثوب سوء جوهره ، وإن أحكم الصنائع صنعته .

باب في اختيار الرسول

والذي يحتاج إليه المرسل في الرسول ، حتى يكون عند ذوى العقول لبيباً ، [٤٤] ومن الصواب قريباً ، أن يختاره حتى يكون أفضل من بحضرته في عقله ، وأدبه ، وضبطه ، وعارضته ^(٤) ، ودينه ، ومروءته . فقد كان يقال : ” ثلاثة تدلّ على أهلها : الهدية على المهدى ، والرسول على المرسل ،

(١) سبق التعريف به في ص ١١٣ .

(٢) القط بفتح أوله : القطع عرضاً .

(٣) إصلاح ليقمّ ومدادها .

(٤) العارضة قوة الكلام وتفتيحه . ورجل ذو عارضة أى ذو جلد وصراحة وقدرة على الكلام .

والكتابُ على الكتابِ“ . وكان يقال : ”رسول المرء مكاتبُ رأيه“ ،
 وكتابُه مكانُ عقله“ . ولذلك جعل الله عز وجل رسلَه أفضلَ خلقه ، وأخبر
 أنه اصطفاهم على العالمين ، وقال : ”الله أعلم حيث يجعل رسالته“ (١) .
 وإنما وجب أن يختار العاقلُ رسولَه لأنه قد أقامه فيما يؤديه عنه مقامه ،
 فعليه أن يجعله أفضلَ من بحضرته ، وعلى الرسول أن يؤدي ما حُمِّل ، كما
 قال الله عز وجل : ”فإنما عليه ما حُمِّل“ (٢) ، وكما قال : ”فهو على الرسلِ
 إلا البلاغُ المبين“ (٣) ، وإنما وجب عليه البلاغُ لأن الرسالة أمانة . فعليه
 أن يؤديها ، لأن الله عز وجل يقول : ”إن الله يأمرُكم أن تؤدُّوا الأماناتِ
 إلى أهلها“ (٤) . وليس للرسول أن يزيد في الرسالة ، ولا أن ينقص منها
 لأن ذلك خيانه للأمانة ، إلا أن يكون المرسل قد فوض إليه أن يتكلم
 عنه بما رأى . وقد قال الشاعر :

فإن كنتَ في حاجةٍ مُرسِلاً فأرسلَ حكماً ولا تُوصِه

وإنما أمرٌ بذلك لأنَّ الحكيم إذا وصَّيته لم يتجاوز وصيتك وإن كان
 الرأي عنده خلافاً ، فربما ضرك بترك الأصوب عنده وأتباع أمرك ،
 ولا لوم عليه في ذلك ؛ وإذا فوضت إليه عميل بحكته ورأيه . وقد روى
 في هذا المعنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجه علياً عليه السلام
 في بعض أموره فقال له : ”أكون يارَسُولَ اللهِ في الأمر إذا وجهتني

(١) سورة الأنعام .

(٢) سورة النور .

(٣) سورة النحل .

(٤) سورة النساء .

كالسكة ^(١) المحمّاة إذا وُضعت للبسم ^(٢) أو يرى الشاهد ما لا يرى الغائب ؟ ، ففوّض إليه لما رأى منه خيراً ووثق برأيه ، وقال لغيره من سائر الناس : ” نضر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها وأداها “ ولم يفوّض إليهم لقلة ثقته بهم . فعلى العاقل أن يستشعر هذا المعنى في رسله ، فإذا أرسل من يثق بأمانته وعقله ، فوّض إليه أن يقول عنه ما يراه أولى بالصواب عنده ، وإذا لم يكن بهذه المنزلة إلا أنه أفضل من يقدر عليه للوقت وصّاه ألا يتجاوز قوله ، وعليه أن يتخير من الرسل من لا تكون فيه العيوب التي نذكرها أو بعضها ، وهي : الخلة ، فإن صاحبها ربما فقد عقله ، وليس من الحزم أن يُقيم الإنسان مقامه من يفقد عقله ، والحسد ، فإن صاحبها عدو نعم الله عز وجل ولا يحب أن يرى لك ولا لغيرك حالاً مستقيمة ، ومتى رأى شيئاً من ذلك حمله حسده على أن يفسده ، والغفلة ، فإن صاحبها لا يضبط ما يحمله عنك ولا يعود به إليك ، والعجلة ، فإن صاحبها لا يضع الأشياء على مواضعها ويسبق بها أوقات فرصتها . وقد قيل : ” رَبِّ عَجَلَةٌ سَبَّ رَيْثًا ^(٣) ” وقال الشاعر :

قد يُدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

والنيمة ، فإنها تُفسد الإخاء ، وتُكدر الصفاء ، ولا يتم معها أمر ، ولا تتجح لمستعملها طلبة ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال ” استعينوا على

(١) السكة المحمّاة الحديدية المتقدمة .

(٢) أي وضعت للسك أو للنقش كما يفعل عند نقش الدراهم . ومعنى العبارة : أكون مجرد أداة لا تصرف عندها ؟

(٣) الريث الإبطاء .

يُنَجِّحُ حَوَائِجَكُمْ بِالْكِتْمَانِ“ ، فمن خالف ذلك كان بعدم التوفيق جديراً ،
وبالحِرْمَانِ حَقِيقاً ، والكذب ، فإنه بجانب الإيمان ، وليس للكذب
رَأْيٌ . وإذا اعتمد الإنسان في أمره على من يكذبه ، كان في ذلك شَيْنُهُ
وَعَطْبُهُ ، والصَّحْرُ ، فليس للضجور صبر على حفظ الأسرار في رسالة ولا
نَاصِيَةٍ أَمَانَةٍ ، وَالْمُجِبُّ ، فإن صاحبه منه في غرور ، وربما حمله على أن
يخالف فيما يَصْرُّ بك فيه ، والهِبْدَرُ ، فإن مَنْ كَثَرَ كَلَامُهُ كَثَرَ سَقَطُهُ ،
ومن أسقط ^(١) لم يحفظ سر صاحبه وأبداه ، وإن لم يكن ذلك مغزاه ^(٢)

[٤٥] فإذا سلم الرسول من هذه العيوب ، وكان مع ذلك أديباً أو مقارباً
لوصف الأديب ، بَلَغَ لِلرَّسُولِ بِإِذْنِ اللَّهِ مَرَادَهُ ، وَأَمِنَ ضَرَرَهُ وَفْسَادَهُ .
فهذه عُمْدَةٌ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي اخْتِيَارِ الرِّسُولِ . وإن اتَّفَقَ لِلرَّسُولِ مَعَ ذَلِكَ
أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ مَقْبُولَ الصُّورَةِ ، حَسَنَ الْاسْمِ ، كَانَ ذَلِكَ زَائِدًا
فِي تَوْفِيقِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُ الْوَاقِدَ
عَنْ اسْمِهِ ، فَإِنْ كَانَ حَسَنًا تَفَاعَلَ بِهِ وَأَعْجَبَهُ ، وَإِذَا كَانَ مَكْرُوهًا غَيَّرَهُ .

وعلى الذي تُوَدَّى إِلَيْهِ الرِّسَالَةُ أَنْ يَسْمَعَهَا ، وَلَا يَلُومُ الرَّسُولَ إِنْ أَغْلَظَ لَهُ فِيهَا ،
فليس على رسول لوم ، فإن أحب أن يقابله بمثل رسالته فعل . فقد أباحه
الله ذلك بقوله : ” قَمِنَ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ “ ^(٣) .
فإن أسك وعفا ، فالعفو أقرب للتقوى ، وأولى بالرأى عند ذوى الجفا .

(١) السقط محركة : الخطأ في القول والحساب . وأسقط في كلامه وسقط : أخطأ .

(٢) قصده .

(٣) سورة البقرة .

باب فيه الجدل والمجادلة

وأما الجدل والمجادلة فهما قول يُقصد به إقامة الحجة فيما اختلف فيه اعتقاد المتجادلين . ويستعمل في المذاهب والديانات ، وفي الحقوق والخصومات ، والتنصّل^(١) في الاعتذارات ، ويدخل في الشعر وفي النثر .

وهو ينقسم قسمين : أحدهما محمود ، والآخر مذموم . فأما المحمود فهو الذي يُقصد به الحق ويُستعمل به الصدق . وأما المذموم فما أريد به المماراة والغلبة وطُلب به الرياء^(٢) والسُّمة^(٣) . وقد جاء في القرآت مدح ما ذكرنا أنه محمود ، وذم ما ذكرنا أنه مذموم ، وتواتر فيه قول الحكماء والفاظ الشعراء ، فقال الله عز وجل : ”وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ“^(٤) . وقال ”يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا“^(٥) . وقال في إبراهيم : ”وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ“^(٦) . وقال : ”وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ“^(٧) وبذلك تعبد^(٨) أنبياءه وصالحى عباده ، فقال عز وجل : ”ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ

(١) التنصّل التبرؤ من جناية أو من ذنب .

(٢) الرياء إظهار خلاف الواقع .

(٣) السُّمة مانوه بذكرة ليرى ، أى قصد الشهرة .

(٤) سورة العنكبوت .

(٥) سورة النحل .

(٦) سورة الأنعام .

(٧) سورة الأنعام .

(٨) يقال تعبد الله العبد بالطاعة أى استعبده .

أَلْحَسَنَةَ وَجَادَلَهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ“ (١). وقد أجمعت العلماء وذوو العقول
 من القدماء على تعظيم مَنْ أَفْصَحَ عَنْ حُجَّتِهِ وَبَيَّنَّ عَنْ حَقِّهِ ، وَاسْتَنْقَاصِ [١٤٥]
 مَنْ عَجَزَ عَنْ إِبْضَاحِ حَقِّهِ وَقَصَرَ عَنِ الْقِيَامِ بِحُجَّتِهِ . وَوَصَفَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ
 قُرَيْشًا بِالْبَلَاغَةِ فِي الْحِجَّةِ وَاللَّدِّ (٢) فِي الْخِصْمَةِ ، فَقَالَ : ” وَتَنْذِرِيهِ
 قَوْمًا لُدًّا “ (٣) . وَقَالَ : ” فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوَافُ سَلَقُوكُم بِاللِّسَانِ حَذَادُ أَشْجَةٍ
 عَلَى آخِرٍ “ (٤) . وَقَالَ : ” وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
 وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ “ (٥) . وَقَالَ : ” وَإِنْ يَقُولُوا
 تَسْمِعُ لِقَوْلِهِمْ كَانَهُمْ خَشَبٌ مُسْتَدَةٌ “ (٦) . وَذَمَّ مَنْ لَا يُقِيمُ حُجَّتَهُ ، وَلَا يَبِينُ
 عَنْ حَقِّهِ فِي خِصْمَتِهِ ، وَشَبَّهَهُم بِالْوِلْدَانِ وَالنِّسْوَانِ فَقَالَ : ” أَوْ مِنْ يَنْشَأُ
 فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ “ (٧) . وَقَالَ الشَّاعِرُ :

وَمَنْ أَمْرًا يَبَيِّنُ بَيِّنَ حَقِّهِ إِذَا أَعْتَرَكْتَ عِنْدَ الْخِصَامِ الْقِرَائِحُ
 لِأَبَانِهِ إِنْ كَانَ فِي بَيْتِ قَوْمِهِ وَلِلْحَسَبِ الْمَأْتُورِ عَنْهُمْ لِفَاضِحُ

وَأَمَّا مَا جَاءَ فِي ذَمِّ التَّعَنُّتِ وَالْمِرَاءِ وَطَلَبِ السُّمْعَةِ وَالرِّيَاءِ وَقَصْدِ الْبَاطِلِ
 وَرُكُوبِ الْهَوَى ، فَقَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : ” هَآؤُلَآءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ

(١) سورة النحل .

(٢) اللد : الخصومة الشديدة .

(٣) سورة مريم .

(٤) سورة الأعراب . وسلقوا : أذكروكم .

(٥) سورة البقرة .

(٦) سورة المائدة .

(٧) سورة الزخرف .

فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا قَمَنَ يُجَادِلُ اللَّهُ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ
وَكَيْلًا“ (١). وقوله: ”وَالَّذِينَ يُخَاجُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ
دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ“ (٢).

ووصف رسول الله صلى الله عليه وسلم صديقاً كان له في الجاهلية (٣).
فقال: ”كَانَ لَا يَشَارِي وَلَا يَمَارِي“ وقال: ”مَنْ تَسْمَعَ سَمِعَ اللَّهُ بِهِ“.
وقال بعضهم: ”المرء يفسد الإخاء“ وأنشد:

فَدَعِ الْمِرَاءَ إِذَا نَطَقْتَ فَإِنَّهُ يُغَيِّرِي بِكَ الْأَعْدَاءَ وَالْحُسَادَا

وقال: ”دع المرء لقلة خيره“ . وقال أمير المؤمنين رضي الله عنه
لابن الكواء (٤): ”سَلْ تَفَقَّهًا وَلَا تَسْأَلْ تَعَثًّا“.

وحق الجدل أن تبنى مقدماته مما يوافق الخصم عليه ، وإن لم يكن في [٤٦]
نهاية الظهور للعقل ، وليس هذا سبيل البحث ؛ لأن حق الباحث أن
يبنى مقدماته مما هو أظهر الأشياء في نفسه وأبينها لعقله ، لأنه يطلب
البرهان ، ويقصد لغاية التبيين والبيان ، وألا يلتفت إلى إقرار مخالفه

(١) سورة النساء .

(٢) سورة الشورى .

(٣) هو السائب بن أبي وداعة القرظي السهمي ، المشاورة : التادي في الخصومة والمارة
الجدال .

(٤) هو عبد الله بن الكواء البكرى . كان ثاسيا عالما . وكان أول أمره من ثاور
على عثمان من أهل الكوفة ثم صار من أصحاب علي عليه السلام ؛ ثم خرج عليه وصار من زعماء
الخوارج .

فيه . فأما المجادل ، فلما كان قصده أنه ^(١) إنما هو إلزام خصمه الحجّة ، كان أؤكد الأشياء في ذلك أن يلزمه إياها من قوله ، وذلك مثل قول الله عز وجل لليهود لما أراد إلزامهم الحجّة فيما حرّموه على أنفسهم بغير أمر ربهم : « كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » ^(٢) . بخادهم بكتّابهم الذي يقرّون به ويفرض ما فيه ووجوبه عليهم ، وأعلمهم أنهم إذا حرّموا على أنفسهم ما لم يحرمه الله في كتّابهم الذي هذه سبيله في وجوب التسليم له فقد ظلموا واعتدوا ، وهذا لازم لهم .

وقد قلنا إن الجدل إنما يقع في العلة ^(٣) من بين سائر الأشياء المسئول عنها ، وليس يجب على المسئول الجواب إلا بعد أن يأذن في السؤال ، فإن لم يأذن فله ذلك وليس ينسب إلى انقطاع ^(٤) ولا محاجزة ^(٥) . فإن أذن فقد لزمه الجواب ، وإن قصّر عنه نُسب إلى العجز ^(٦) .

وطلبُ العلة يكون على وجهين : إما أن نطلبها وأنت لا تعلمها ، وإما أن نطلبها وأنت تعلمها ليُقرّر لك بها . وليس لك أن تجادل أحداً في حق يدعيه إلا بعد مسألته عن العلة فيما أدعاه فيه ، فإن كان عالمك

(١) يستقيم الكلام بالاستغناء عن قوله "أنه" ومن الطريف ملاحظة تفرقة المؤلف بين الباحث والمجادل ، وبيان غرض كل منهما وسبيله في الوصول إليه .

(٢) سورة آل عمران .

(٣) انظر ص ٣٠ من هذا الكتاب .

(٤) و (٥) و (٦) سيأتي تضمين المؤلف لهذه الألفاظ في ص ١٥٠ = ١٥١

بعلته قد تقدم في شهرة مذهبه ؛ فالأحوط أن تُقرره بما ينبي عليه أمره ،
 لئلا يحدد بعض ما ينتحله أهل مذهبه إذا وقف عليه الكلام ويدعى أنه
 مخالفهم فيه ؛ فان أمنت ذلك منه فلا عليك أن تجادله وإن لم تقرره [٤٦م]
 بعلته . واثنان لا يلزمك منهما سؤال ؛ ولا يجب لهما عليك جواب ؛
 أحدهما من سألك عن العلة في شيء ادعيته فأخبرته بها . وهي مما يجوز
 أن يعلل ذلك الشيء بمثله فطالبك بعلة للعلة ؛ فطالبته في ذلك غير لازمة
 ومسألته ساقطة ، لأن ذلك يوجب أن يطالب بعلة للعلة ، ثم كذلك إلى
 مالا نهاية له . والآخر من أراد مناقضتك في مذهبك ولم ينصب لنفسه
 مذهباً يجب له عليك فيه بمخالفتك إياه المخاصمة ، فليس تلزمك له حجة في ذلك
 ولا يجب له عليك فيه سؤال . مثال ذلك أن رجلاً لو سار إلى بعض الأئمة
 والحكام برجل قد قتل رجلاً أو أخذ ماله ؛ وأقام البيعة على ذلك ؛ ثم
 لم يكن وليّ الدم ؛ ولا صاحب المال ، ولا ويكلاً لصاحب الدم من
 أوليائه ، ولا لصاحب المال — فلم يكن للأئمة ولا للحكام أن يقيموا
 حداً عليه أو يطالبوه برد ما أخذ ؛ إذ كان الدافع له والمطالب بذلك فيه
 غير مستحق للمطالبة بما يجب عليه من الحكم .

والعلل علتان : قريبة وبعيدة . فالقريبة ما كان المعلول وآليها ،
 والبعيدة ما كان بينه وبينها غيره ؛ وذلك كالولد الذي علت له القربة
 النكاح ، وعلته البعيدة والداه . وللعلل وجوه : (منها) اعتبارها ، فإن
 اطردت في معلولاتها صحّت ، وإن قصرت عن شيء من ذلك علم أنها
 غير صحيحة . ومثال ذلك أن الحركة لما كانت علة المتحرك ، كان قولنا
 إذا سئلنا عن الجسم المتحرك : ما علة حركته ؟ فقلنا : حلول الحركة فيه —
 قولاً صحيحاً ، لأنه يطرّد في معلولاته ويوجد في كل جسم متحرك . فإما

سئلنا عن العلة في حركة الجسم ، فقلنا : لأنه جسم ، كان ذلك باطلا ،
 لأنه قد تكون أجسام لا حركة فيها . (ومنها) أن تكون العلة في صحة
 الشيء هي العلة في بطلان ضده ، إذا كان ضدا لا واسطة له ، وقد مضى
 [٤٧] تمثيل ذلك ^(١) . (ومنها) أن العلة في الشيء إذا كانت من اجتماع شيئين
 أو أكثر من ذلك لم تكن واجبة إذا انفرد بعض تلك الأشياء ، مثل
 رجل أراد قلب حجر ثقيل فلم يطقه ، فلما عاونه عليه غيره وتأيدت قواهما
 قلباه ، فليس العلة في الاستقلال به أحدهما ، لأن كل واحد منهما عاجز
 عنه إذا انفرد به ، وإنما العلة اجتماعهما . ومن هذا المعنى يحتاج للتواتر
 بأنه حجة وإن كان كل واحد من المخبرين يجوز عليه الكذب . (ومنها)
 أن العلة إذا كانت مأخوذة مما يوافق الخصم فيه ، فلا مطعن له فيها ، وذلك
 مثل قول موحد ^(٢) سأل ^(٣) مشبه عن العلة في قوله : إن الله ليس بجسم ،
 فقال لإجماعنا على أنه ليس يشبهه شيء ، فلو كان جسما لكان مثل الأجسام
 في معنى الجسمية . فإذا كانت العلة مأخوذة مما يخالفك فيه الخصم ، فليس

(١) الظاهر من ٢٨ - ٢٧ من هذا الكتاب .

(٢) موحد من التوحيد وهو معناه الصام الإيمان بالله وحده لا شريك له . ولكنه
 هنا التوحيد الذي تعبه المعتزلة ويعتبره الشمرستاني في قوله :

”واضعوا على هي ذوق الله تعالى بالأبصار في دار الفرار وغي الشبيه عنه من كل وجه : جهة
 ومكانا وصورة وحما وتحيزا وانتقالا وزوالا وتغيرا وتمايزا . وأوجوا تأويل الآيات المتشابهة
 فيها وسموا هذا التوطئ توحيدا“

(٣) وقوله « مشبه » مأخوذ من التشبيه الذي قالت به جماعة من غلاة الشيعة وبعض
 الفرق الأخرى . قال الشمرستاني : ”لأنهم صرحوا بالتشبيه فقالوا إن مبودهم صورة ذات
 أعضاء وأبعاد ، إما روحانية وإما جسمانية ، ويجوز عليه الاشتغال بالنزول والصعود
 والاستقرار والتسكن“ .

يجوز أن تحتاج عليه بها إلا بعد أن نُعلمه أن علتك مأخوذة مما يخالفك فيه ،
وأنه لا سبيل لك إلى تعريقه صحتها إلا بعد أن تصحح عنده المقدمات
التي أوجبتها ، وذلك بحواب موحد سألته مُلحد عن العلة في إثبات الرسل ،
فليس يمكنه أن يبين ذلك إلا بعد أن يدل على الباري ، فإذا صح في نفس
خَصمه أنه موجود وأقر له بذلك ذكر العلة في الرسل ، فأما قبل ذلك فلا
سبيل له إلى إيجاد العلة في ذلك . (ومنها) أن الجدل في العلة والسؤال
عنها ماضٍ في سائر ما يخالفك فيه خصمك ، فإذا صرت إلى ما وافقك
فيه فليس لك أن تسأله عن العلة ولا أن تُجادله فيها ، لأنك حينئذ تكون مجادلاً
لنفسك ، اللهم إلا أن يكون سؤالك عن العلة في ذلك لتقرره بها ثم تأخذه
بطردها في شيء — وقد أباه — حكمه حكم ما وافقك فيه ، وذلك كقولك
لمن وافقك على إثبات الباري عز وجل وهو مجسم : ما دليلك وعلتك اللذان
أوجبت بهما وجود الباري عز وجل ؟ فيدل على ذلك بما يشاهد من تأليف
الأجسام ووجودها بعد أن لم تكن وتناهيها وتركيبها وآثار الصنعة فيها .
فتكون علته في ذلك هي العلة في أن صانعها لا يشبهها ولا يكون مثلها ، وأنه
متى كان جسماً لزمه حكم الأجسام في الحاجة إلى صانع غيره . (ومنها) أن المعارضة
في الجدل صحيحة ، وإن كان قوم قد أبوها وقالوا إنها لا مسألة ولا جواب ،
وليس الأمر كما ظنوا . والمعارضة هنا المقابلة ، كما يقال عارضت السلعة
إذا بعته بمثلها . فإذا قابلت بين الأمرين والعلتين وطالبت خصمك بأن
يحكم للشيء بما توجهه العلة في نظيره ، كان ذلك واجباً . وقد عارض الله
عز وجل من أبى البحث وأستنكره مع إقراره بابتداء الخلق واختراعه ، فقال :
” وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا

الَّذِي أُنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (١) ، فالزمهم الله ألا ينكروا
إعادتهم بعد أن فقدوا مع إقرارهم بابتداء الله إياهم وما كانوا . وكل زيادة
تقع في المسألة أو العلة من جنس المسألة فليس ذلك بخروج عنها ، وأما
ماخالف معنى المسألة والعلة فهو خروج وتخليط .

وقد ذكر المتكلمون (٢) " الخلاف والمناقضة " وكثيراً ما يستعملون
بعض ذلك في موضع بعض . ونحن نبين كل واحد منها ، ونرسم فيه ما يُعرف
به الفرق بينه وبين الآخر ، فيستعمل كل واحد منهما في موضعه .

" فالمناقضة " في اللغة المفاعلة ، من نقضت البناء والغزل وغيرهما .
فإذا بنى الإنسان قوله على إثبات شيء لشيء بعينه (٣) ثم نفاه عنه ، أو بنى
قوله على نفي شيء عن شيء بعينه ثم أثبت له ، فكانه قد نقض ما بنى وأستحق
اسم المناقضة . وإنما جعل ذلك على المفاعلة ، لأن المجادلة لا تقع إلا بين
اثنين . [٤٨] وإنما تقع المناقضة (٤) في الكلام إذا كان الخبر عنه واحداً والخبر
واحداً ولم تتشابه الأسماء ولا الأخبار في لفظها مع اختلاف معانيها ، وكان
الزمان في القول واحداً ، والمكان واحداً ، والنسبة في الاستطاعة واحدة ،
ثم اختلفا في تلك بالإيجاب والنفي ، فتلك المناقضة . فأما إذا لم يكن الخبر
عنه واحداً في الاسم ، كقولنا : زيد قائم وعمر غير قائم ، فليس ذلك
مناقضة . وإذا لم يكن الخبر واحداً في اللفظ كقولنا : زيد قائم وزيد غير

(١) سورة يس .

(٢) المتكلمون هم المشتغلون بعلم الكلام ، وهو علم يقتسدر به على إثبات العقائد الدينية
بإيراد الحجج عليها ودفع الشبه عنها . وموضوعه ذات الله سبحانه وتعالى وصفاته .

(٣) في الأصل : " بعينه " وهو تصحيف .

(٤) في الأصل : " المناقضة " .

قائم ، فليس ذلك مناقضة . وإذا اتفقت الأخبار واختلفت معانيها ،
 كقولنا : إسحاق مغن وإسحاق غير مغن ، ونحن نريد بإسحاق الأول
 الموصل^(١) والآخر الظاهري^(٢) ، فليس ذلك مناقضة . وإذا اشتبهت
 الأخبار واختلفت معانيها كقولنا : زيد أسود من عمرو [وليس
 زيد أسود من عمرو]^(٣) ونحن نريد بأحدهما السوداء ، وبالآخر السواد
 الذي هو ضد البياض ، فليس ذلك مناقضة . وإذا اختلف الزمان في القول
 فقلنا : زيد قائم وزيد غير قائم ، وأردنا أن زيدا قائم الساعة وغير قائم
 في غد ، فليس ذلك بالمناقضة . وإذا اختلف المكان في ذلك فقلنا : زيد
 خارج وزيد غير خارج ، وأردنا أنه خارج من داره وغير خارج من المدينة ،
 فليس ذلك مناقضة . وإذا اختلفت النسبة في الاستطاعة والفعل^(٤) فقلنا :
 زيد كاتب وزيد غير كاتب ، ونحن نريد أنه يحسن الكتابة ويستطيعها
 متى أرادها ، وهو غير كاتب بيده في حالة الإخبار عنه ، لم تكن مناقضة .
 فهذا معنى المناقضة .

وأما "الخلاف" فهو ما خالف الشيء الشيء فيه في بعض مآثره
 ولم تجتمع له شروط المناقضة التي وصفناها ، وأكثر ما وقع من الخلاف [م ٤٨]

(١) هو إسحاق بن إبراهيم النديم الموصل ، كان من ندماء الخلفاء وواحد عصره في الطرف
 والثناء . وكان إلى ذلك ، من العلماء باللغة والشعر وأخبار الشعراء وأيام العرب .
 توفي عام ٢٣٦ هـ .

(٢) هو إسحاق بن راهويه المتوفى عام ٢٣٨ هـ . جمع بين الحديث والفقه والورع ، وعنه
 أخذ داود الظاهري إمام أهل الظاهر المتوفى عام ٢٧٠ هـ .

(٣) زيادة يقتضيها السياق .

(٤) سياق الكلام يقتضي أن يعطف "الفعل" . على "الاستطاعة" ، كما يدل عليه المثل

المدكور بعد في المتن .

في الشرائع خاصة من جهة النسخ ، أو التشابه في الأسماء والأخبار ، أو من جهة الخصوص والعموم ، أو من جهة الإجمال والتفسير ، أو من جهة الرأي والتخير : وقد ذكرنا ذلك بشرحه في "كتاب التعبد" بما أغنى عن إعادته ، إلا أنا نذكر من ذلك جملاً تدل عليه .

أما "الاختلاف من جهة النسخ" ، فهو أن يكون الشيء محرماً ثم يحل ، أو محلاً ثم يحرم ، أو مفروضاً ثم يترك ، أو متروكاً ثم يفرض . فيعلم الأول قوم ولا يعلمون النسخ فيعملون بما علموا ، ويعرف النسخ آخرون فيأخذون بما عرفوا ، فيقع الخلاف بينهم من هذا الوجه . وذلك مثل المسح على الخفين ، فإن الشيعة تزعم أنه منسوخ ، والعمامة^(١) ماضية على الأول ، وكالمثقة^(٢) التي تزعم العمامة أنها منسوخة ، والشيعة ماضية فيها على الأمر الأول ، وإنما خالف النسخ المناقضة لاختلاف الأوقات ، وأن الوقت الذي حرم فيه الحلال غير الوقت الذي حل فيه الحرام .

وأما "الاختلاف من جهة التشابه في الأسماء والأخبار" ، فمثل تحريم المسكر ، فإن قوماً حملوه على أنه الشراب الذي هذا نعتة ، فحرموا قليل التبيذ وكثيره ، وقوم حملوه على أنه الجزء الذي يسكر دون غيره ، فأحلوا منه ما كان دون ذلك من السكر ، فوقع الاختلاف بينهم لاحتمال التأويل .

وأما "الخصوص والعموم" فهو أن يعم بالشيء شيء ، ثم يخص نوع منه بالتخليل ، أو يعم بالتخليل جنس ثم يخص نوع منه بالتحريم ، وذلك

(١) المراد بالعمامة هنا غير الشيعة من المسلمين .

(٢) المراد بالمتعة الزواج المؤقت . وقد أجمع أهل العلم والدين على أنها حرام .

كتحليل الله البيع جملة ، واختصاص رسول الله صلى الله عليه وسلم بتحريم الدرهم بالدرهمين ، والدينار بالدينارين ، والرطب بالتمر ، وأشباه ذلك. وقد ذهب هذا التخصيص على عبد الله بن عباس^(١) ، فكان يميز بيع الدرهمين بالدرهم إذا كان نقداً ، فوقع الخلاف بينه وبين غيره من هذا الوجه .

وأما "الإجمال والتفسير" فكقوله عز وجل : "وَاللّٰتِي يَأْتِيَنَّ أَلْفَاحِشَةً مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا"^(٢) . ثم إنه فسر السبيل فقال : "خذوا عني ، قد جعل الله لهن سبيلاً : البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام ، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم" . وقد حمل الشراة^(٣) أمر السبيل على ظاهر القرآن ، وأبطلوا الرجم ، وكذلك فعلوا في الحمر الأهلية وكل ذي ناب من السباع ومخلب ، لأنهم أخذوا في ذلك بالجملة من قوله : "قُلْ لَا أَحَدٌ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ..." إلى آخر الآية^(٤) . وذهب عليهم التفسير ، فوقع الخلاف بينهم وبين الجماعة من هذا الوجه .

وأما "الرأي" فهو أن ترد الحادثة على بعض العلماء ، ولا يكون عنده فيها حكم لله ولا سنة لرسوله ، فيجتهد رأيه ، فيأخذ الناس ذلك عنه ، ثم يبلغه الحكم في ذلك فيدع رأيه ويرجع إلى ما بلغه من حكم الله ورسوله

(١) هو ابن عم الرسول (صلى الله عليه وسلم) . كان يلقب بحجر الأمة الإسلامية لسبق علمه بالحديث والفقه والشعر والمغازي . توفي بالطائف عام ٦٨ هـ . وله من العمر سبعون سنة .
(٢) سورة النساء .

(٣) الشراة : الخوارج ، سموا أنفسهم بذلك أخذاً من قوله تعالى "ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله" أي يبيعها ويبدلها في الجهاد .

(٤) سورة الأنعام .

ويتمسك أتباعه بما حملوه عنه ، لأنهم لا يعلمون برجوعه ؛ ولذلك قال ابن مسعود (١) : ” وَيَلُ لِلنَّاسِ مِنْ زَلَّةِ الْعَالَمِ “ لأنه يجتهد رأيه ثم يؤخذ عنه ثم يبرن له الصواب في غير ما رأى فيرجع إليه ، ويذهب الأتباع بما سمعوا ، فيقع الخلاف من هذا الوجه .

وأما ” التخيير “ فكالمقامة مثنى مثنى أو فرادى فرادى (٢) ، وكتخيير الله عز وجل في كفارة اليمين في الطعام أو الكسوة أو تحرير الرقبة .

فهذه جمل ما في الخلاف والمناقضة ، وهي تكفى وتغنى إن شاء الله .

باب فيه أدب الجدل

وهو أن يجعل المجادل قصده الحق ، ويغنيه الصواب ، وألا تحمله قوة إن وجدها في نفسه ، وصحة (٣) في تميزه ، وجودة خاطره ، وحسن بديهته ، وبيان عارضته ، وثبات حجته — على أن يسرع في إثبات الشيء ونقضه ، ويشرع في الاحتجاج له ولضده ، فإن ذلك مما يذهب بهاء علمه ، ويُطفئ نور فهمه ، وينسبه به أهل الورع والديانة إلى الإلحاد وقلة الأمانة .

(١) هو عبد الله بن مسعود الصحابي الجليل . كان من أعلم الصحابة بالقرآن ، توفي بالمدينة عام ٣٢ هـ .

(٢) أي كتخيير بين أنت تقام الصلاة بالعبارات التي تقام بها مثنى مثنى كما هي الحال في الأذان وبين أن تقام بها فرادى .

(٣) في الأصل ” وصحة “ .

ولذلك أطرح الناس الراوندى^(١) ومن أشبهه على قوتهم في الجدل وتمكنهم من النظر . وليعلم أن عواقب طلاقة اللسان وجنابات البيان على كثير من الناس كبيرة غير محمودة . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” ما أوتى امرؤ شراً من طلاقة اللسان “ . وأخذ أبو بكر رضى الله عنه بطرف لسانه وقال : ” هذا الذى أوردنى الموارد “ . وألا تسجره الكثرة والقلة فيما يطلبه من الحق فيقلد الأكرين ، أو يريد التكبر عليهم ، أو التكثر بهم ، أو الترويس عليهم بما يتبعهم ، فقد ذم الله الكثرة ومدح القلة فقال : ” إَلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ “^(٢) . وقال : ” وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ “^(٣) . وألا يقلد الحكم الفاضل في^(٤) كل ما يأتى به إذ كان غير مأمون منه الخطأ ، فقد يخطئ العاقل ويصيب الجاهل ، ولذلك قال أمير المؤمنين للحارث بن حوط^(٥) ” يا حارث ، إنه ملبوس عليك ، إن الحق لا يعرف بالرجال ، ولكن أعرف الحق تعرف أهله “ . وأن يخرج عن قلبه التعصب للأبناء فإن الله يقول : ” وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ

(١) هو أبو الحسين أحمد بن يحيى بن اسحق الراوندى . كان من رجال القرن الثالث ، وله مؤلفات كثيرة ومناظرات مع جماعة من علماء الكلام . وقد انفرد بمذاهب قلها أهل الكلام عنه . توفي سنة ٢٥٠ هـ بخداد بالغاً من العمر أربعين سنة . والراوندى نسبة الى راوند بفتح الواو وهى قرية من قرى قاسان بتواحي اصبهان .

(٢) سورة ص .

(٣) سورة يوسف .

(٤) زيادة ليست في الأصل .

(٥) هو الحارث بن حسان بن حوط الذهلى . كان من أصحاب علي ، قتل يوم الجمل عام ٣٦ هـ .

آيَاتِنَا» (١) . وأن يعتزل الهوى فيما يريد إصابة الحق فيه ، فإن الله يقول :
 «وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» (٢) . وألا ينقاد لزعزعة القول
 وظاهر رياء الخصم ، فقد حذر الله من هذه الطبقة على أيدي أنبيائه
 فقال : «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ
 مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ . وَإِذَا تَوَلَّى سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ
 الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ» (٣) . وقال : «وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ
 تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ» (٤) . وقال المسيح في الإنجيل :
 «احذروا الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بلباس الحملان» (٥) وقلوب الذئاب»
 وألا يقبل من ذى قول مصيب كل ما يأتى به لموضع ذلك الصواب
 الواحد ، ولا يرد على ذى قول مخطئ فيه كل ما يأتى به لموضع ذلك الخطأ
 الواحد ، بل لا يقبل قولاً إلا بحجة ولا يرده إلا لعلّة ، ويكون فى ذلك
 كالوزان الحاذق المتفقد لميزانه وصنجاته ، فإن الخطأ فى الرأى أعظم
 ضرراً من الخطأ فى الوزن . وألا يجادل ويبحث فى الأوقات التى يتغير فيها
 مزاجه ويخرج عن حد الاعتدال ، لأن المزاج إذا زاد على حد الاعتدال
 فى الحرارة ، كان معه العجلة وقلة التوقف وعدم الصبر وسرعة الضجر ،
 وإذا زاد فى البرودة على حد الاعتدال أورث السهو والبلادة وقلة الفطنة
 وإبطاء الفهم ، وقد قال جالينوس : إن مزاج النفس تابع لمزاج البدن .

(١) سورة لقمان .

(٢) سورة ص .

(٣) سورة البقرة .

(٤) سورة المائدة .

(٥) الحملان جمع حمل ، والحمل بالتحريك الحروف أو هو الجذع من أولاد الضأن فادونه .

وأن يتجنب العجلة ويأخذ بالتثبت فإن مع العجلة الزلل . وألا يستعمل
 التلجج والمحك^(١) ، فإن العصبية تغلب على مستعملها فتبعده عن الحق
 وتصدده عنه . وألا يعجب برأيه وما تسوله له نفسه ، حتى يفضي بذلك
 إلى نصحاءه ويلقيه إلى أعدائه ، فيصدقونه عن عيوبه ، ويجادلونه
 ويقيمون الحجة عليه ، فيعرف مقدار ما في يديه إذا خولف فيه ، فإن كل
 مجر بخلاء يسر^(٢) ؛ ومن لم يشعر برأيه ولم يدرك أنه في غرر^(٣) من لفظه
 كان بعيداً من نيل شفاعته . وأن يتجنب الكذب في قوله وخبره ؛ لأنه
 خلاف الحق ، وإنما يريد بالجدال إبانة الحق وأتباعه . وأن يتجنب الضجر
 وقلة الصبر ، لأن عمدة الأمر في استخراج الغوامض وإثارة المعاني الصبر
 على التأمل والتفكير ، ولذلك قال أمير المؤمنين عليه السلام : " منزلة [م.هـ.]
 الصبر من الإيمان منزلة الرأس من الجسد ، ولا إيمان لمن لا صبر له " .
 وأن يكون منصفاً غير مكابر ، لأنه إنما يطلب الإنصاف من خصمه
 ويقصده بقوله وحجته ، فإذا طلب الإنصاف بغير الإنصاف فقد طلب
 الشيء بضده وسلك فيه غير مسلكه . وأن يجتهد في تعلم اللغة ويتميز في العلم
 بأقسام العبارة فيها ، فإنه إنما ينهي له بلوغ ما يقتضي الجدل بلوغه من قسمة
 الإنسان الأشياء إلى ما تنقسم إليه ، وإعطاء كل قسم منها ما يجب له ،

(١) المحك المشادة والمنازعة في الكلام .

(٢) هذا مثل ، وأصله أن رجلاً كان له فرس وكان يجربه فرداً ليس معه أحد ، وحمل
 كلباً مر به طائر أجراء تحته أو رأى إعصاراً أجراء تحته ؛ فأعجبه ما رأى من سرعته فقال :
 لو راхت عليه ! — فنادى قوماً فقال : إني أردت أن أراهن عن فرسي هذا ، فأياكم يرسل
 معه ؟ فقالوا : إن الخلبة غذا ، فقال : إني لا أرسله إلا في خطر ، فراهن عنه . فلما كان
 الغد أرسله فسبق ، فبعد ذلك قال : كل مجر في الخلاء يسر .

(٣) أي في خداع وإطاع بالباطل .

والاحتراس من اشتراك الأسماء واختلاط المعاني ، باللغة والمعرفة بها . وأن يتحرر من مغالطات المخالفين ومشبهات المؤهين . وأن يحلم عما يسمع من الأذى والنبر ^(١) ولا يشغب إن شاعبه خصمه ، ولا يرد عليه إن أربى في كلامه ، بل يستعمل الهدوء والوقار ، ويقصد مع ذلك لوضع الحجّة في موضعها ، فإن ذلك أغلظ على خصمه من السب ، وربما أراد الخصم باستعمال الشغب قطع خصمه ، وأن يشغل خاطره عن إقامة حجته ، فإذا أعرض المجادل عن ذلك ولم يتحرك له طبعه ولم يشغل ذهنه ، جمع مع قهر خصمه والاستظهار عليه ظهور حمله للناس ومعرفة الحضور بوقاره ونقص خصمه وخفته . وأن يتجنب الجدل في المواضع التي يكثر فيها التعصب لخصمه ، فإنه لا يعدم فيها أحد شئئين : إما الغيظ فتقصر قريحته ، وإما الحصر فيعيا بحجته . وألا يستصغر خصمه ولا يتهاون به وإن كان صغير المحل في الجدل ، فقد يهود أن يقع لمن لا يؤبه له الخاطر الذي لا يقع لمن هو فوقه في الصناعة . وقد أوصى القدماء بالاحتراس من العدو وألا يستصغر صغير منه ، والخصم عدو ، لأنه يحاكدك بلسانه ، وهو أقطع سيفيه كما قال أردشير ، وقد قال حسان بن ثابت :

[٥١] لسانى وسيفى صارمانِ كلاهما وَيَبْلُغُ مالا يبلُغُ السَّيْفُ مِذْوَدِي ^(٢)

وأن يصرف همه إلى حفظ النكت التي تمر في كلام خصمه ، مما يبنى منها مقدماته وينتج منها نتائجها ، ويصحح ذلك في نفسه . ولا يشغل قلبه بتحفظ جميع كلام خصمه ، فإنه متى اشتغل بذلك أضاع ما هو أحوج

(١) مصدر نبر ينبر ، من باب ضرب ، وهو اللزوم وتلقيب الناس بما يكرهون .

(٢) المذود : كمين اللسان .

إليه منه . وألا يكلم خصمه وهو مُقبل على غيره أو مستشهد بمن حضر على قوله . فإن ذلك سوء عشرة وقلة علم بأدب الجدل ، وظهور حاجة إلى معونة من حضر إليه . وألا يجيب قبل فراغ السائل من سؤاله ، ولا يبادر بالجاب قبل تدبره واستعمال الروية فيه . وأن يعلم بعد هذا أنه لا يعدُّ في المجادلين الخُذَّاق حتى يكون ، بحسن بديهته ، وجودة عارضته ، وحلاوة منطقته — قادرًا على تصوير الحق في صورة الباطل ، والباطل في صورة الحق متى شرع في ذلك ، وإقامة كل واحد منهما في النفوس مُقام صاحبه فقد وصف الشاعر بعض الجدليين بذلك فقال :

يُسْرِكُ مَظْلُومًا وَيُرْضِيكَ ظَالِمًا وَيَحْمِلُ إِنِّ حَمْلَتَهُ كُلَّ مَغْرَمٍ

وقال آخر :

أَلَا رَبَّ خَصْمٍ ذِي بَيَانٍ عُلُوَّتِهِ وَإِنْ كَانَ أَلْوَى ^(١) يَغْلِبُ الْحَقُّ بَاطِلُهُ

وليس تشعر مع هذا أنَّ الأتفة من الانقياد للحق عجز ، وأن الاعتراف به والبخوع ^(٢) له عز ، فلا يمتنع من قبول الحق إذا وضع له . ولا يكون قصده في الجدل ألا يُقْطع ، فإن من كان في ذلك غرضه لم يزل في تنقل من مذاهبه وتلون في دينه . وإنما ينبغي له أن يعتقد من المذاهب ما قام البرهان عليه إن كان مما يقوم عليه برهان ، أو وضحت الحججة المقنعة فيه إن كان مما لا يوجد عليه برهان ، ويناضل عن ذلك من ناضله ، ويجادل من جادله فإن وقع عليه من هو أحسن عارضة منه وألحنُ بحجته ، وقَصَّرَ

(١) أي جدل شديد الخصومة .

(٢) يخضع بالحق أقربه .

[٥٠١ م] هو عن عبارته في إيضاح حقه ، لم يتصور له الحق الذي قام في نفسه بصورة الباطل إذ هو قَصْرٌ عن حجته . وألا يسخره بيان خصمه ، فيظن أن حقه بطل لما انقطع هو عن الزيادة عليه ، بل يدع الكلام في الوقت إذا وقف عليه ، ويعاود النظر بعد الفكر والتأمل ، فإنه لا يعدم من نفسه ، إذا استنجد بها ولاذ بها ، مخرجا مما قد نزل به إن شاء الله .

وليعلم مع هذا أن الانقطاع ليس بالسكوت فقط والتقصير عن الجواب ، لكن المكابرة ، ومحمد الصورة ، والخروج عن حد الإنصاف إلى اللجاجة ، والتنقل من مذهب إلى مذهب وعلّة إلى علّة ، كله انقطاع ؛ وهو أقبح عند ذوى العقول من السكوت ؛ وقد قال الشاعر :

وإذا تنقّل في الجواب مجادلٌ دلّ العقول على انقطاع حاضر

واعلم أن السائل أشد استهتارا ^(١) واستظهارا من المجيب ، لأن له أن يروى في المسألة قبل إطلاقها ؛ والمجيب في غفلة عما يريده السائل ، فليس ينبغي للمجيب أن يأذن في السؤال إلا بعد أن يعلم في أى معنى هو ، فإن أحسن من نفسه القوة على الجدل فيه ، وإلا لم يأذن . فإذا أذن فقد تضمن الجواب ^(٢) ، فإن لم يحب فقد عجز . وإن أجاب فلم يقنع أو وقف الكلام عليه فلم يردّد ولم يرجع إلى قول خصمه ، فقد انقطع . وإذا استأذن السائل فأذن له فلم يسأل ، فقد عجز ، وإن تبرع عليه بالإذن من غير أن يستأذن ، فإنه لم ينسب إلى عجز ولا انقطاع ، لأنه خير في ذلك . والإقناع

(١) عدم المبالاة . ورجل مستهتر ؛ بصفة أمم المفعول ؛ لا يبالى ما قيل فيه أو قيل له .

(٢) أى تكفّل به والزّنه .

الجواب الذي يوجب على السائل القبول ، فإن لم يقبل ولم يرد فقد انقطع ، وإن مال المحيب نحو السائل ولم يكن ذلك اعتقاده ، فقد حاجر خوفاً من الانقطاع . وكذلك إن ادعى أن الجواب قد أقنعه ، ثم لم يرجع إليه ويعتقده فقد حاجر خوف الانقطاع . وإذا أقنع المحيب السائل فقد زال عنه ما انعقد عليه من تضمن الجواب ، والتقصير من السائل والمحيب دون إظهار الحجّة في تحقيق ما تجادل فيه وإبطاله من حيث تقرُّ به النفس وإن بحجده اللسان ؛ إما من الذي قَصَّر عن الزيادة ، أو من الذي نَكَلَ عن الجواب ، والفُلج في الحَدَل إظهار الحجّة التي تقنع ، والغالب هو المظهر لذلك .

ثم إن المتكلمين من أهل هذه اللغة أوضاعاً ليست في كلام غيرهم ، مثل : الكيفيّة (١) والكميّة (٢) ، والمائية (٣) ، والكُون (٤) ، والتولد (٥) ، والجزء (٦) ، والطفرة (٧) ، وأشباه ذلك . فمتى كلم به غيرهم كان المتكلم مخطئاً ومن الصواب بعيداً ، ومتى خرج عنها في خطابهم كان في الصناعة مقصراً . وكذلك للتقدمين من الفلاسفة والمنطقيين أوضاع متى استعملت مع متكلمي أهل هذا الدهر وهذه اللغة كان المستعمل لها ظالمياً وأشباه من كلم العامة بكلام الخاصة ، والحاضرة بغير أهل البادية ، فمن أفاضلهم :

(١) و (٢) و (٣) و (٤) و (٥) و (٦) و (٧) — الكيفية عندهم ما يجاب به عن السؤال بكيف ؛ والمراد بها هيئة الشيء ، والكمية مقدار الشيء أو ما يجاب به عن السؤال بـ "كم هو؟" . والمائية أو المائية معناها حقيقة الشيء أو ما يجاب به عن السؤال بـ "ما هو؟" . والكون أن يكون بعض الأشياء . كما في بعض آثار ككون النار في الحجر . والتولد نشوء الأشياء بعضها من بعض . والجزء ما ينقسم إليه الجسم ؛ ولم في الجزء الذي لا يجرأ كلام كثير ، فمنهم من يقول به ومنهم من يبطله . والطفرة عندهم أن المسار على سطح الجسم يتصل من مكان إلى مكان بينهما أما كن لم يقطعها هذا المسار ولا مر عليها ولا حاذها ولا حل فيها ، فهذا هو الطفرة ولهم في إمكانها واستعمالها كلام كثير .

السولوجسموس ، والهيولى ، والقاطاغورىاس ، وأشباه ذلك مما إذا
خاطبنا به متكلمينا أوردنا على أسماعهم ما لا يفهمونه إلا بعد أن نُفسِّره ،
وكان ذلك عيًّا وسوء عبارة ووضعاً للأشياء فى غير موضعها ، ومضى اضطررتنا
حال إلى أن نكلّمهم بهذه الأشياء ، عبّرنا لهم عن معانيها بالفاظ قد عهدوها ،
فقلنا فى مكان السولوجسموس ”القرينة“ ، وفى موضع الهيولى ”المادة“
وفى موضع القاطاغورىاس ”المقولات“ ، وكذلك ما أشبهه من ألفاظ
الفلاسفة .

وقد أتى فى شعر من لا بىس الكلام والجدل وعاشر أهلها من ألفاظ
المتكلمين ما استُطِرِف ، لأنه خُوطِب به من يعلمه وكُلّم به من يفهمه ،
فمن ذلك قول أبى نُوَّاس :

تأملُ العينُ منها محاسناً ليس تنفدُ
وبعضها قد تنهى وبعضها يتوَلدُ (١)

وقوله (٢) :

تركتُ منى (٣) قليلاً من القليل أقلّ
يكاد لا يتجزأ أقلّ فى اللفظ من لا

[٢٥٢]

(١) فى الأصل ”يزيد“ غير أن رواية ”البيان والبيان“ هى المناسبة للقام .

(٢) وبها من الأصل : وقيله :

”يا عاقد القلب منى خلا تذكرت خلا ؟“

(٣) وفى ”البيان والبيان“ : ”قلّى“ .

وقول النظام (١) :

أفرغ من نور سمائي مصور في جسم انسي

وافقر الحسن إلى حسنه فجّل عن تحديد كفي

فأما مخاطبة من لا يلبس الكلام ويعرف أوضاع أهله بالفاظ المتكلمين وأوضاع الجذليين ، فهو جهل من قائله وخطأ من فاعله ؛ ويلحق من ركبته من سوء البناء ما لحق من قال في بعض خطبه في دار الخلافة : ” ثم إن الله بعد أن سوى الخلق وأنشأهم ؛ ومكن لهم لأشاهم “ . وكما لحق الآخر حين خطب فقال : ” وأخرجه الله من باب اللبسة إلى باب الألبسة “ (٢) ، وعلى أن العوام والطعام ومن لا علم له بالكلام ، إذا سمعوا ألفاظاً لم يعهدوها ولم يقفوا على معانيها ، ربما اعتقدوا في قائلها الكفر واستحلوا دمه ، ولذلك شهد بعض سفلة العوام على الخليل وأصحابه بالزندقة لما سمعوه يذكرون أجناس العروض ويقطعون الشعر ، فورد عليه من ذلك ما لم يفهمه ، فظن أنه زندقة (٣) ؛ فقال الخليل فيه :

(١) هو إبراهيم بن سيار النظام . كان أحد فرسان النظر والكلام على مذهب المعتزلة . وله في ذلك تصانيف عدة . وكان أيضاً متادباً ؛ وله شعر رقيق المعاني على طريقة المتكلمين . نشأ بالبصرة واشتهر بها غير أنه قضى أواخر حياته في بغداد . توفي حوالي عام ٢٢٥ هـ .

(٢) المراد باللبسة تقي الصفات عن الله تعالى ، وبالألبسة إثباتها له وهما من ألفاظ المتكلمين .

(٣) قال ابن خلكان : ” ويقال إن الخليل كان له ولد متجلف فدخل على أبيه يوماً فوجده يقطع بيت شعر بأوزان العروض ؛ فخرج إلى الناس “ وقال : ” إن أبي قد جهن “ فدخلوا عليه وأخبروه بما قال ابنه فقال ذلك البيتين المذكورين مخاطباً له بهذا .

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني أو كنت أجهل ما تقول^(١) عذركا
لكن جهلت مقالتي فسببتني وعلمت أنك جاهل فعذرتك

وهذا ما في باب الجدل وأدب المجادل ، وفيه بلاغ للميز العاقل
إن شاء الله .

باب فيه الحديث

وأما الحديث ، فهو ما يجري بين الناس في مخاطباتهم ، ومناقلاتهم ،
وله وجوه كثيرة ، فمنها الجِدُّ والهزل ، والسخيف والجزل ، والحسن
والقبيح ، والمليحون والقصيح ، والخطأ والصواب ، والصدق والكذب
والنافع والضار ، والحق والباطل ، والناقص والتام ، والمردود والمقبول ،
والمهم والفضول ، والبلغ والعي . [٥٢]

فأما الجِدُّ ، فإنه كل كلام أوجبه الرأي وصدر عنه ، وقصد به قائله
وموضعه موضعه ، وكان مما تدعو الحاجة إليه ، وباستعمال ذلك وبالإمساك
عما سواه أوصت الحكماء ، فقالوا : ” مَنْ عِلْمُ أَنْ كَلَامَهُ مِنْ عَمَلِهِ قَلَّ
كَلَامُهُ إِلَّا فِيمَا يَعْنِيهِ ” وقالوا : ” مَغْبُورٌ مَنْ مَضَى عَمْرُهُ فِي غَيْرِ مَا خُلِقَ
لَهُ ” . وقال الله تعالى : ” أَحْسِبْتُمْ أَنَّكُمْ خُلِقْنَا مُعْتَبَرًا وَأَنْكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ” (٢)
ووصف نبيه فقال : ” وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ” (٣)

(١) في الأصل : ” ما أقول “ .

(٢) سورة المؤمنون .

(٣) سورة النجم .

وأما الهزل ، فما صدر عن الهوى . والناس في استعماله على ضربين .
أما الحكماء والعلماء ، فاستعملوه في أوقات كلال أذهانهم وتعب أفكارهم
ليستجموا به أنفسهم ، ويستدعوا به نشاطهم : ويروحووا به عن قلوبهم
خوفا من ملالتها وكلالتها ، وأمروا بذلك فقالوا : ” رَوِّحُوا الْقُلُوبَ تَجِ
الذِّكْرَ “ . وقالوا : ” رَوِّحُوا عَنِ الْقُلُوبِ ، فَإِنَّ لَهَا سَامَةً كَسَامَةِ الْأَبْدَانِ “
ومن قصد هذا بالهزل فالحمد لأراد ، لأنه قصد المنفعة وما يوجبه الرأى
في سياسة عقله ونفسه ، وإجمام فكره وقلبه ، وقد كان رسول الله صلى الله
عليه وسلم يمزح ولا يقول إلا حقاً . وقال عمر رضي الله عنه في أمير المؤمنين
رحمة الله عليه : ” هُوَ وَاللَّهُ لَهَا لَوْلَا دُعَابُهُ فِيهِ “ (١) .

وقال الشعبي (٢) ” وصلت بالغلم وبلغت بالمأخ “ وذلك لما عليه النفوس
من استئصال الحق والجد ، واستخفاف للهو والهزل .

وأما السفهاء والجهال فاستعملوه للخلاعة والمجون ومتابعة الهوى ، وذلك
المذموم الذي قد عاب الله مستعمله ومدح المعرض عنه ، فقال فيمن عابه :
” وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا آنَفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا “ (٣) وقال : ” وَمَنْ
النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا “ (٤) .

(١) الضمير في قوله ” لها “ يعود إلى الخلافة .

(٢) هو أبو عامر الشعبي ، كوفي تابعي جليل القدر وافر العلم ، وخاصة علم المغازي .
استنصره عبد الملك بن مروان إلى ملك الروم فأثنى ملك الروم عليه لغزارة علمه ورجاحة
عقله . وكان مزاحاً : يحكى أن رجلاً دخل عليه وهو مع امرأته في داره فقال : أيتها الشعبي ؟
فقال : هذه ! توفي بالكوفة عام ٢٠٥ هـ .

(٣) سورة الجمعة .

(٤) سورة لقمان .

وقال فيمن مدحه بالإغراض عنه : ”وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ“ (١) ، وقال في موضع آخر : ”وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا“ (٢) ، وقد أوصت العلماء بتجنب هذا الفن من الهزل فتألوا : ”إِيَّاكَ وَالْمَزَاحَ فَإِنَّهُ يَجْرِي عَلَيْكَ السُّفْلَةُ“ وقالوا : ”الْمِزَاحُ السَّبَابُ الْأَصْفَرُ“ وقال أمير المؤمنين رضي الله عنه : ”مَنْ أَكْثَرَ مِنْ شَيْءٍ عُرِفَ بِهِ ، وَمَنْ كَثُرَ ضَحْكُهُ قَلَّتْ هَيْبَتُهُ ، وَمَنْ مَزَحَ اسْتُخِفَّ بِهِ“ .

وأما السخيف من الكلام ، فهو كلام الرعاع والعوام الذين لم يتأدبوا ولم يستمعوا كلام الأدباء ، ولا خالطوا الفصحاء ، وذلك معيب عند ذوى العقول ، لا يرضاه لنفسه إلا مائق (٣) جهول . إلا أن الحكماء ربما استعملوه في خطاب من لا يعرف غيره طلباً لإفهامه ، كما أنه ربما تكلف الإنسان لمن لا يحسن العربية (٤) بعض رطانة (٥) الأعاجم ليفهمه ، فإذا جرى استعمال اللفظ السخيف هذا المحرى ، وغُزِي به هذا المغزى ، كان جائزاً ، ولللفظ السخيف موضع آخر لا يجوز أن يستعمل فيه غيره ، وهو حكاية النوادر والمضاحك وألفاظ السخفاء والسفهاء ؛ فإنه متى حكاها الإنسان على غير ما قالوه ، خرجت عن معنى ما أريد بها وبردت عند

(١) سورة القصص .

(٢) سورة الفرقان .

(٣) المائق : الاحق القبي .

(٤) في الأصل : لمن لا يحسن بالعربية .

(٥) الرطانة : الكلام بغير العربية .

مستعملها ، وإذا حكاهما كما سمعها وعلى لفظ قائلها ، وقعت موقعها وبلغت غاية ما يريد بها ، ولم يكن على حاكمها عيب في سخافة لفظها .

وأما الجزل من الكلام ، فهو كلام الخاصة والعلماء ، والعرب الفصحاء ، والكتاب والأدباء ، الذي قد تقدم وصفه في الشعر والخطابة . وليس شيء أصون على جزالة الكلام وخروجه عن تحريف ألفاظ العوام من مجالسة الأدباء ومعاشرة الخطباء وحفظ أشعار العرب ومناقلاتهم ، [٥٤] والمختار من رسائل المولدين الأدباء ومكاتباتهم . ولذلك كانت ملوك بني أمية يخرجون أولادهم إلى البوادي ، لينشئوهم على الفصاحة وجزالة اللفظ ، وله أيضا علم الناس أولادهم الرسائل ، ورووهم أشعار القدماء ، وحفظوهم القرآن ، وأمروهم بتجويده (١) وأمروهم بالقراءة والإنشاد ليعتادوا الكلام الجزل ، وتنفتح لهواتهم (٢) وتذل (٣) به ألسنتهم ، وتتشكل بتلك الأشكال ألفاظهم ، فإن التخلق يأتي دونه الخلق ، والعادة كالطبيعة . ولا شيء أفسد للكلام ، ولا أضمر على المتكلم ، ولا أعون على سخافة اللفظ من معاشرة أضداد من ذكرنا وطول ملايستهم واستماع قولهم . فينبغي لمن أراد تجنب الكلام السخيف ولزوم الجزل الشريف ، أن يتق معاشرة من يفسد بمعاشرته بيانه ، كما ينبغي أن يلزم معاشرة من تصلح معاشرته لسانه .

وأما البليغ ، فقد ذكرناه حين وصفنا البلاغة ما هي (٤) ، وأتينا بأشياء مما حضرنا ذكره من القول البليغ الموجز ، وأغنى ذلك عن إعادته .

(١) في الأصل : " بتجويده " .

(٢) واحدتها لغة وهي الحمة المشرقة على الخلق .

(٣) تذل : تنقاد ، وتسلس . وفي الأصل : " تذل " بالدال المهملة .

(٤) انظر من ٧٦ و ٧٧ من هذا الكتاب .

والعبي ضد البلاغة ، وهو مذموم من الرجال ، محمود في النساء ، لأن
العبي والخصر يجري منهن مجرى الحياء والخفر^(١) . لذلك قال امرؤ القيس :
فَتَوَرُّ الْقِيَامِ قَطِيعُ الْكَلَامِ م تَفَرُّ عَنْ ذِي غُرُوبٍ خَصِرُ^(٢)

وقال آخر :

لَيْسَ يُسْتَحْسَنُ فِي وَصْفِ الْمَوَى عَاشِقٌ يُحْسِنُ تَأْلِيفَ الْحَجَجِ

وقد يستحسن أيضا الخصر والعبي في المسألة ، وعند وصف الفاقة
والخلّة ، لأنهما يدلان على كرم الطبع ، والأنفة من حال المسألة ،
والتصون^(٣) عن ذكر الخلّة . وقد مدح الله قوماً بمثل هذا فقال :
”يُحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيَاهِهِمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ
الْحَقَاقَ“^(٤) .

وأما الحسن من الكلام ، فهو كل ما كان من معالي الأمور وفي محاسنها ،
وأحسنه الدعاء إلى الله ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وقد قال الله
عز وجل : ”اللَّهُ تَزَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ
[٥٤م]

(١) الخفر شدة الحياء .

(٢) قوله فتور القيام أي متراخية ليست بوثابة في قيامها ، وقطيع الكلام أي قلبه .
وتفترأي تبسم قبلتي عن هذا النثر ولا تضحك ضحكا شديدا . والغروب ماء الإنسان وحدتها ؛
وخصر بارد .

(٣) التصون والحصارون صيانة العرض .

(٤) سورة البقرة .

الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلَّيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ“ (١) وقال :
 ”وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ
 الْمُسْلِمِينَ“ (٢) ثم يتلوه كل ما كان من مكارم الأخلاق ، فإن رسول الله
 صلى الله عليه وسلم قال : ”بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَكُمْ“ وكل ما كان من
 دعاء الى بر ، وتعطف ، وإصلاح ، وتألف ، وخير يُجْتَلَب ، وشر يُجْتَنَب ،
 فهو من حَسَنِ الكلام وجميله ، ومما يستعمله أهل العقل والحكمة ويثابرون
 عليه ولا يرون تركه ولا السكوت عليه ؛ لأن ترك استعمال الحسن قبيح
 ورأى من أهمله غير صحيح .

والقبيح من الكلام ، ما كان في سَفْسَافٍ (٣) الأمور وأراذلها : كالنميمة
 والغيبة ، والسعاية ، والكذب ، وإذاعة السر ، والمكر ، والخديعة —
 فكل ذلك قبيح لأنه من مذموم الأخلاق ومعيب الأفعال . وقد قال رسول
 الله صلى الله عليه وسلم : ”إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مَعَالِيَ الْأُمُورِ وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا“
 وذم الله النميمة فقال : ”وَلَا تُطْعِ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ هَمَّازَ مَشَاءٍ يَتَمِيمٍ“ (٤)
 وقال في الغيبة : ”وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا“ (٥) وقال
 في الكذب : ”وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ“ (٦) بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ“ وقال في السعاية :
 ”لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ

(١) سورة الزمر .

(٢) سورة فصلت .

(٣) السفاف الردي من كل شئ . والأمر الخفير .

(٤) سورة القلم .

(٥) سورة المجرات .

(٦) سورة البقرة .

سَمَاعُونَ لَهُمْ“ (١) وقال في النفاق : ”إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ
النَّارِ وَلَنْ يُجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا“ (٢). وقال في المذكر : ”أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ
أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ“ (٣).
[٥٥] وقال في إذاعة السر : ”وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا
بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأُمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ
مِنْهُمْ“ (٤) وقال في الخديعة : ”يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخْدَعُونَ
إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ“ (٥). وإذا أردت أن تنفي عن نفسك وقولك القبيح
فانظر ما استقبحتنه من فعل غيرك وقوله فتجنبه فإنه القبيح، وما استحسنته
منهما فاتبعه فإنه الحسن . ولا تسامح نفسك بأن تستحسن منها ما تستقبحه
من غيرك ، فقد قال الشاعر :

وإبدأ بنفسك فأنهها عن غيرها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

وأما الفصح من الكلام فهو ما وافق لغة العرب ، ولم يخرج عما عليه
أهل الأدب ، وتصحيح ذلك وُضِعَ النحو ، وُلِجَّعَ وُضِعَتِ الْكُتُبُ فِي اللُّغَةِ
وَذَكَرَ الْمُسْتَعْمَلُ مِنْهَا ، وَالشَّاذُّ وَالْمُهْمَلُ . وَحَقٌّ مِنْ نَشَأَ فِي الْعَرَبِ أَنْ
يُسْتَعْمَلَ الْاِقْتِدَاءُ بِلُغَتِهِمْ ، وَلَا يُخْرَجَ عَنْ جُمْلَةِ الْفَاطِمِ ، وَلَا يَقْنَعُ مِنْ
نَفْسِهِ بِمَخَالَفَتِهِمْ فَيُخَطِّئُوهُ وَيَلْحَنُوهُ .

(١) سورة التوبة .

(٢) سورة النساء .

(٣) سورة التحمل .

(٤) سورة النساء .

(٥) سورة البقرة .

واللحن ما خالف اللغة العربية ، وخرج عن استعمال أهلها وما بني عليه إعرابها ، وهو معيب عند الأدباء في الجملة . وعلى من يأخذ نفسه بالإعراب ويتكلم بالغريب من لغة الأعراب أعيب . ويروى أن عمر رضى الله عنه كان يضرب على اللحن . فأما العرب فإذا لحن الواحد منهم لقربه من الحاضرة ونزوله على طريق السابلة ^(١) ، سقطت عند أهل اللغة منزلته ، ودُفعت ورُفضت لغته . وإنما يصح الإعراب لأحد رجلين : إما أعرابي بدوى قد نشأ حيث لا يسمع غير الفصاحة والإصابة ، فيتكلم على حسب عادته وسجيته ، ومتى خوطب باللحن لم يفهمه ؛ مثل ما يحكى عن رجل قال له بعض الأعراب قولا ، فقال له الرجل : ” كيف أهلك ؟ ” فقال له الأعرابي : ” قتلا بالسيف إن شاء الله ! ” ، فظن الأعرابي أنه إنما سألته كيف يموت ولو قال له : ” كيف أهلك ؟ ” لأجابه بجوابه . ويروى أن الوليد ^(٢) قال لرجل : ” مَنْ خَتَنَكَ ؟ ” قال : ” يهودى ! ” فضحك الوليد منه ، فقال : ” لعلك أردت من خَتَنِكَ ^(٣) فهو فلان بن فلان ” . وإما للولد الذى قد تأدب ونظر في النحو واللغة وأخذ بهما نفسه ومرر عليهما لسانه ، حتى صار ذلك عادة له . فأما لغيرهما فليس يصح إعراب . وربما اغتفر في دهرنا هذا اللحن والخطأ للإنسان في كلامه لكثرة اللحن في الناس ، وأنه قد فشا وعظم وفسدت الفصاحة بمخالطة العرب الأعاجم والأقباط وسائر الأجناس . فأما في الكتاب فغير مغتفر له ذلك ؛ لأن الطرف يتكرر نظره فيه ، والروية تجول في إصلاحه ، وليس كمثل الكلام الذى يجرى أكثره على غيره روية ولا فكرة .

(١) هم المختلفون على الطريق جبهة وذهايا .

(٢) هو الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموى المشهور ، وكان لحانا .

(٣) الختن محرقة الصبر أو كل من كان من قبل المرأة كالأب والأخ .

وأما المواضع التي يجب أن يستعمل اللحن فيها ويستعمله في أمثالها ويكون ذلك مما يوجب الرأي ، فهو عند الرؤساء الذين يلحنون ، والملوك الذين لا يعربون . فمن الرأي لدى العقل والحسنة (١) والحكمة والتجربة ألا يعرب بين أيديهم ، وأن يدخل في اللحن مدخلهم ، ولا يريهم أن له فضلاً عليهم ، فإن الرئيس والملك لا يجب أن يرى أحداً من أتباعه فوقه ، ومتى رأى أحداً منهم قد فضّله في حال من الأحوال نافسه وعاداه وأحب أن يضع منه . وفي عداوة الرؤساء والملوك لمن تحت أيديهم البوار . ومن ذلك ما يحكى عن بعض من تكلم في مجلس بعض الخلفاء الذين كانوا يلحنون فلحن فعوتب على ذلك فقال : ” لو كان الإعراب فضلاً لكان أمير المؤمنين إليه أسبق “ . وسأل الوليد رجلاً عن سنيه فقال : ” كم سنيتك ؟ “ فقال : ” أربعين “ ، قال : ” لحنّت “ ، فقال : ” إنما أتبعك يا أمير المؤمنين “ ، قال ” فكم سنوك ؟ “ ، قال ” أربعون “ . وقد يستملح اللحن في الجوارى والإماء وذوات الحداثة من النساء ، لأنه يجري مجرى الغرارة (٢) منهن وقلة التجربة . وفي ذلك يقول الشاعر :

وحديث الله هو ما تشبهه النفوس يوزن وزنا

منطق صائب وتلحن أحيا نأ وخير الحديث ما كان لحنا

ولست أدري كيف صار اللحن عند هذا الشاعر خير الحديث ، وأظنه أراد أملح الحديث ، فاضطره الوزن إلى أن جعل في موضع ذلك ” خير الحديث “ . وقد تأول له بعض الناس فقال : إنما أراد باللحن الفطنة

(١) الحسنة : الخيرة .

(٢) الشذاجة .

للعانى ، ومنه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إنكم لتحاكمون إلى ولعل أحدكم ألحن بحجته “ ، يريد : أفطن لها ، وما أتى في هذا الأويل بشيء لأن قوله ” منطق صائب “ قد أتى على إصابة المعنى فما (١) وجه فطنتها لذلك أحياناً ؟

وأما الخطأ والصواب ، فإن الصواب كل ما قصدت به شيئاً فأصبحت المقصد فيه ولم تعدل عنه . ومنه قيل ” سهم صائب “ ، ” وأصبحت الغرض “ وصواب القول من ذلك مأخوذ . ويقال : ” قول صائب “ من صاب يصوب وهو صائب ، مثل قال يقول وهو قائل . و ” وقول مصيب “ ، من أصبت في القول أصيب بإصابة وأنا مُصِيب والقول مصيب أيضاً ؛ كما تقول أردت الشيء أريده إرادة وأنا مرید . والقول المصيب هو مما أُعطى المفعول فيه اسم الفاعل ، مثل ” راحلة “ وإنما هي مرحولة ، و ” عيشة راضية “ وإنما هي مرضية . وقد مدح الله عز وجل الصواب فقال : ” يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا “ (٢) .

ومن الصواب أن يعرف أوقات الكلام ، وأوقات السكوت ، وأقذار الألفاظ ، وأقذار المعانى ، ومراتب القول أيضاً ، ومراتب المستمعين له ، وحقوق المجالس وحقوق المخاطبات فيها ؛ فيعطى كل شيء من ذلك حقه ، ويضمه إلى شكله ، ويأتيه في وقته وبحسب ما يوجبه الرأي له ، فإنه متى أتى الإنسان بكلام في وقته ، أنجحت طلبته (٣) وعظمت في الصواب منزلته ؛ ولذلك ترى من له الحاجة إلى الرئيس يرقب

(١) في الأصل ” فبار... “ .

(٢) سورة النبأ .

(٣) الطلبة ، بكسر اللام ، الحاجة والمطلوب .

لها وقتاً يراه فيه نشيطاً فيكلمه ، لأنه متى كلمه وهو ضيق الصدر أو مشغول ببعض الأمر كان ذلك سبب حرمانه وتعذر قضاء حاجته . وارتقَابُ الأوقات التي تصلح للقول وانتهاز الفرصة فيها إذا أمكنت ، من أكثر أسباب الصواب وأوضح طُرُقِهِ . ثم متى سكّت عن الكلام في الأوقات التي يجب أن يتكلم فيها ، لحقه من الضرر بترك انتهاز الفرصة مثل ما يلحقه من ضرر الكلام في غير وقته . ولذلك قال أمير المؤمنين رضي الله عنه : ” انتهِزُوا الفُرَصَ فإنها تمرّ مرة السحاب “ .

والسكوت أوقات هو فيها أمثل من الكلام وأصوب ، فمنها السكوت عن جواب الأحمق والهازل والمتعنت ، وفي ذلك يقول الشاعر :

وأصمْتُ عن جواب الجَهِل جُهْدِي وبعضُ الصمتِ أبلغُ في الجوابِ

وقال بعضهم : ” رب سكوت أبلغ من منطق “ . ومنها السكوت عن مقابلة السفية على سَفَهِهِ ، واللّئيم على ما ينالك منه ، والتصوّن عن إجابتهما والحلم عما يبدر منهما ، وقد مدح الله الحلم فقال : ” إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ “ (١) وسمى نفسه الحلیم . وقال الشاعر :

ولم أر مثل الحليم زِيناً لصاحبٍ ولا صاحباً للمرء شراً من الجَهِل

وقال الله عز وجل في وصف المؤمنين ونزّههم عن مقابلة الجاهلين :

” وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا “ (٢) . وقال : ” وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ “ (٣) . وقال : ” وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ “ (٤) .

(١) سورة هود .

(٢) سورة الفرقان .

(٣) سورة القصص .

(٤) سورة الأعراف .

وقال الشاعر :

متاركة اللثيم بلا جواب أشد على اللثيم من الجواب

وقال آخر :

وقد أسمع القول الذي كاد كلما إذا ذكرته النفس قلبي يصدع

فأبدي لمن أبداه مني بشاشة وأنى مسرور بما منه أسمع

وما ذاك من عجب به غير أنى أرى أن ترك الشر للشر أقطع [٥٧]

والحلم إنما هو عن نظيرك أو من هو دونك. فأما من هو فوقك أو مسلط عليك ، فليس يسمى السكوت عن مقابلته حلمًا ، بل هو بباب التقية أشبه ، وبالمداواة أليق ؛ وبذلك أوصى الشاعر حين يقول :

بني إذا ما سامك الدهر قادر عليك فإن الذل أحرى وأحرز

ولا تحم في كل الأمور تعززا فقد يورث الذل الطويل التعز

ومما يستحسنه الأدباء ويراه صواباً كثير من العلماء : الحلم عن النظر ومن هو دون النظر ، لأنه يبين عن فضل الإنسان في نفسه وترفعه ^(١) عن مقابلة من جهل ^(٢) عليه ووضع نفسه لأذيته ، وقد قيل : "من عاجل نفع الحلم ، كثرة أعوان الحلم على الجاهل" ؛ والتقية والمداواة للسلطان والرئيس في دفع المرهوب من جهتهم واجتذاب المحبوب منهم ؛ ومقابلة

(١) في الأصل ؛ برفعه

(٢) في الأصل حاش. إزاء هذا الكلام غير واضح .

من ^(١) يرى نفسه فوقك ، ويتوهم أن إمساكك عنه خوفا منه ، فيجترئ عليك بحملك ^(٢) وسكونك عنه فيما ينوبك منه . ولذلك قال الله عز وجل : ” قَمِنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا آَعْتَدَى عَلَيْكُمْ “ ^(٣) وقال : ” وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ “ ^(٤) . وإنما كان الصواب في مقابلة من هذه حاله ، لأن في مقابله قطعاً لمادة أذيته ، وردعاً له عن معاودة مثل فعله ، وقد قال الشاعر :

إذا كنت عند الحلم ترداد جرأة على وعند العفو والصفح تجهل ^(٥)
ردعتك عني بالتجاهل والحنأ ^(٦) فإنهما عندي لمثلك أمثل

وقال آخر :

ألا لا يتجهل أحدٌ علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وأما أقدار الألفاظ وأقدار المعاني ، فهو أن يأتي بالمعنى فيما يليق به من اللفظ ، وقد مضى الكلام فيه بما أغنى عن إعادته ^(٧) . وأما مراتب القول ومراتب المستمعين له فقد تقدم القول فيه ^(٨) . وبالله التوفيق .

بكل ” البيان “ بحمد الله تعالى وحسن عونه
والصلاة التامة على سيدنا محمد نبيه وعبد

(١) أي مواجهته وأخذه بالشدّة .

(٢) في الأصل : « بحملك عنه ويكون سكونك عنه فيما ينوبك منه » .

(٣) سورة البقرة .

(٤) سورة الشورى .

(٥) تكبر وتضجر .

(٦) الحنا من الكلام الخفة .

(٧) انظر الصفحة ١٦٣ من هذا الكتاب .

(٨) انظر الصفحات ١٠٨ — ١١٠ من هذا الكتاب .

دليل الكتاب

(١)

أئمة ٣٢ و ٤٦ و ٦٩ و ١٠٣ و ١٢٣
 إبراهيم عليه السلام ١٠ و ١٦٤
 الأبرش الكلبي ١٢٦
 أبقراط ١١٨
 ابن الإطنابة ٨٩
 أحمد بن سليمان ١١٤
 الإخشيد ٥٧
 أردشير ٣٤ و ١٤٨
 أرسطاطاليس ٨٢ و ٨٩ و ١١٧
 الأرض المقدسة ٥٤
 أسامة بن زيد ٣٦
 إسحاق الظاهري ١٤١
 إسحاق الموصلي ١٤١
 إسرائيل ٣٣ و ١٣٦
 أفلاطون ٦٩
 أسكندر المقدوني ٨٩
 إقليدس ١١٧

امروء القيس ٧٧ و ٨٥ و ٨٦ و ٨٨
 و ٩٥ و ١٠٠ و ١٠٣ و ١٥٨
 أمير المؤمنين [انظر "على رضى الله عنه"]
 ١٣ و ١٤ و ٣٧ و ٥٥ و ٥٦
 و ٦٩ و ٨٤ و ١١١ و ١٣٥ و ١٤٥
 و ١٥٥ و ١٥٦

الأمين ٩٨

بنو أمية ١٥٧

الإنجيل ١٤٦

أميرس ٨٩

آل محمد ٦٩

أنف الناقة ٥٨

أياد ١١١

أبو الحسين ١٤٥

أبو أيوب ١٢٩

(ب)

الباقر ٥٧

البداء ٥٤

برجيس ٥٧

(ح)

حاتم طيء ٨٧

الحارث بن حلزة البشكري ٨٨

الحارث بن حوط ١٤٥

الحجاز ٣٦

حجر (الكندي) ٩٥

حسان بن ثابت ٦٧ و ٨٥ و ٨٦

١٢٦ و ١٤٨

الحسن بن وهب ١١٣

حمزة بن عبد المطلب ٥٦

الحيرة ٨٧

(خ)

الخصيب ٩٨

الخليل بن أحمد ٨٢ و ٨٤ و ١٥٣

الخنساء ٩٠

الخوارج ١١٧

(د)

ابن دريد ٧٦

الدولة العباسية ٥٤

بطليموس ١١٧

أبو بكر الصديق ١٢٤ و ١٤٥

أبو بكر عاصم ١٠٤

أبو بكر محمد بن دريد البصري ٧٦

(ت)

ابن التستري ١٢٢

التقية ٤٧ و ٥٤ و ٧٦

تميم ٨٨

التوباذ ١١

التوراة ١٣٦

(ث)

الثريا ٦٥

ثمود ١١١

(ج)

الجاحظ ٣ و ٨٤ [انظر "عمر بن بحر"]

جالينوس ١١٨ و ١٤٦

الجاهلية ١٣٥

جعفر بن يحيى ٦٧ و ١٠٩

جفنة (أولاد) ٨٧

الجمحي ١٢٨

الجناب ١١

(ذ)

الذلفاء ٩٥

ذَنب العبد ٨٥

ذو الكفل ٨٥

ذويزن ٥

(ز)

زبيد الأيامي ٢١

زندقة ١٥٣

زهير بن أبي سلمى ٨٨

زيد بن علي ١٢٨

(ر)

رأس الكلب ٥٨

الرواندي ١٤٥

أبو الربيع ١١٤

الرسول (عليهم السلام) ٣٢ و ١٣١

رسول الله (صلعم) ١٣ و ١٨ و ٢١

٣٦ و ٣٨ و ٤٦ و ٤٦ و ٤٩

٥٥ و ٦٧ و ٨٥ و ٨٦ و ٨٩

١٠٤ و ١٠٩ و ١١٠ و ١١٧ و ١١٨

١١٩ و ١٢١ و ١٢٦ و ١٣٠

١٣٥ و ١٤٣ و ١٤٥ و ١٥٥

١٥٩ و ١٦٠ و ١٦٣

[انظر أيضا "محمد صلعم" و "النبى صلعم"]

(س)

سعاد ٨٦

سعدى ٨٨

سليمان بن وهب ١١٣

السوفسطائية ٤٣

(ش)

الشرارة ١٤٣

شرح ٥٥

الشطرنج ٨١

الشعبى ١٥٥

الشيعة ٤٦ و ٥٤ و ١٠٤ و ١٤٢

(ص)

الصادق عليه السلام (جعفر) ٥٧ و ٩

أبو صالح بن يزداد ١١٥

صفيين ٨٩

الرشيد ٩٨

الرضا ٥٧

روح القدس ٨٥

الروم ٨١

(ط)

طاهر بن الحسين ١١٥

طحفة بن زهير النهدي ١١٩

(ع)

ابن عباس ٦٩

عاد ١١١

عامر بن الطفيل ٥٦

العباس بن عبد المطلب ١٣

عبد الله بن الأهم ١٠٦

عبد الله بن عباس ٦٩ و ١٤٣

عبد الله بن معاوية بن جعفر ١٢٨

عبد الملك بن مروان ٥٤ و ٥٥

٨٩ و ١٥٥

عثمان بن عفان ١٢٤ و ١٣٥

العرب ٥٧ و ٨١ و ٨٢

عرفة ١٣

عزة ٩٨

عكاظ ١١٠

أبو علقمة النحوي ١٢٠

علي بن أبي طالب ٤ و ٣٧ و ٥٦ و ١١٧

١٣٠ و

[انظر أيضا "أمر المؤمنين"]

علي بن الجهم ٩٣

علي بن الحسين ١٥

عمر بن الخطاب ٣٥ و ٥٥ و ١١٨

١٢٤ و ١٥٥ و ١٦١

عمر (بن عبيد الله بن معمر) ٨٨

عمرو بن بحر الجاحظ ٣

عمرو بن معد يكرب ٥٦

عمرو بن العاص ١١٨

عمار بن ياسر ١١٧

عنزة ٨٨

["انظر أيضا الجاحظ"]

أبو عامر الشعبي ١٥٥

أبو عمرو (بن العلاء) ١٠٣

أبو عبد الله عليه السلام ٦

(غ)

الغريض ٥٧

غسان ٨٨

(ف)

القرزوق ٧٨

الفرس ٨١

فرعون ٢٧ و ٦٨

الفلاسفة ١٥١

(ل)

لقمان ٨٠ و ١٤٦

لليلى ٩٦

(م)

المأمون ١١٥

المختار بن أبي عبيد ٥٤

المتكلمون ١٤٠ و ١٥١ و ١٥٢

محمد بن خالد ١١٦

محمد بن عبد الملك ١١٤

محمد (صالح) ٣ و ١١٠ و ١١٢

[انظر ايضا : "رسول الله" "والنبي صلعم"]

مروان بن محمد ١١٣

ابن مسعود ١٤٤

المسيح (عليه السلام) ٤٣ و ١٤٦

مسيلم (المتنبي) ١١٣

معاوية بن أبي سفيان ٨٩

ابن مكرم ١١٤

مكلم الذئب ٥٧

موسى (عليه السلام) ٢٧ و ٥٤

٦٨ و

(ق)

القرآن ٤٥

قرش ٨٥ و ١٣٤

قس بن ساعدة ١١١

قسطاس ٨١

قنبر ٣٧

(ك)

كعب (قبيلة) ٩١

كعب بن زهير ٨٦

كعب بن سعدى ٨٨

كعب بن مامه ٨٧ و ٨٨

الكلاب ٨٨

كلاب (قبيلة) ٩١

ابن الكواء ١٣٥

(ن)

النبي (صلعم) ١٣ و ١٤ و ٣٣ و ٨٧

١٠٩ و ١١٠ و ١١٢ و ١٢٣ و ١٣٩

[انظر "رسول الله" و "محمد صلعم"]

النظام ١٥٣

النعمان (بن المنذر ملك الحيرة) ٩٦

النايعة ٩٦

نعمير ٩١

أبو نواس ٩٨ و ١٠٢ و ١٠٣ و ١٥٢

(هـ)

هارون ٦٨

هرم بن سنان ٨٨

هشام (بن سالم) ٦

هشام (بن عبد الملك) ١٢٦

هود ٥٥

(و)

واضل بن عطاء ١٢٧

الوليد بن عبد الملك ١٦١ و ١٦٢

(ي)

ياقوت ١٢٨

يحيى بن خاقان ١١٤

يحيى بن خالد ١١٥

يزيد ٩٥

يزيد بن عمر بن هبيرة ١٢٦

يزيد بن الحكم ٨٨

يزيد بن الوايد ١١٣

اليهود ١٣٦

يوحنا النجوى ١١٨

يوحنا فيلوبونوس ١١٨

يوسف (عليه السلام) ٥٥ و ١٤٥

يونس (عليه السلام) ٥٤

فهرس الموضوعات

صفحة	
١	تمهيد في البيان العربي ، من إلحاحظ الى عبد القاهر، لعله حسين (*)
٢٢	تحقيق في حياة قدامة الخ لعبد الحميد العبادي (*)
٣	مقدمة المؤلف...
٧	باب قسمة العقل ...
١٠	» فيه ذكر وجوه البيان ...
٢٠	» » البيان الأول وهو "الاعتبار" ...
٢٢	» في ذكر القياس ...
٣١	» الخبر ...
٤١	» في البيان الثاني وهو "الاعتقاد" ...
٤٨	» فيه البيان الثالث وهو "العبارة" ...
٥٨	» الاستتقاق ...
٦٢	» فيه ما اعطت فائده ...
٦٢	» » ما أعطت عينه ...
٦٣	» ما أعطت لأمه ...
٦٤	» فيه التشبيه ...
٦٦	» من اللحن ...
٦٨	» فيه الرمز ...
٦٩	» من الوجدى ...
٧١	» من الاستعارة ...
٧٣	» في الأمثال ...
٧٥	» من الغزير ...

(*) وضعت أرقام هذا الفصل والذي يليه أسفل الصفحات تميزا خاصا عن أرقام متن الكتاب .

صفحة	
٧٦	باب من الخذف
٧٧	» من الصرف
٧٨	» من المبالغة
٧٩	» في القطع والعطف
٨١	» فيه التقديم والتأخير
٨١	» من الاختراع
٨٢	» تأليف العبارة — الكلام على الشعر
١٠٥	» فيه المتشور وما جاء فيه
١٠٥	» الكلام على الخطابة والترسل
١٢٩	» في اختيار الرسول
١٣٣	» فيه الجدل والمجادلة
١٤٤	» فيه أدب الجدل
١٥٤	» فيه الحديث